عائدٌ من الرَّمس

الحقوق كافة
محفوظة
لاتحاد الكتّاب العرب

البريد الالكتروني: E-mail **unecriv@net.sy**
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتاب العرب على شبكة الإنترنت
http://www.awu.sy

الإخراج الفني : وفاء الساطي
تصميم الغلاف : فرح فتال

عزام مطيع الأحمد

عائدٌ من الرَّمس

منشورات اتحاد الكتاب العرب
دمشق

سلسلة القصص (3)
2012

الإهداء

إلى
كلّ الذين
أحبّهم
وكانوا عوناً
لي في طريقي...

قطرة أمل

بكاء الطفلة ، يقطّع جذوع غاباتي ، يلتهم سواحل أفكاري ، رذاذ غباره يحرق عيوني..

كلام الطبيب جبال من السّحب تتكاثف ، تحفر أغواراً في خلايا دماغي ، تتهاطل أمطار الخيبة بلا انقطاع، تصدّع أرضي محدثةً شروخاً لا قرارة لها.

ــ (الطفلة ستصاب بالعمى ، إن لم نستطع تأمين القطرة).

عيون أمّها وجعٌ أبيض ترتسم فيه خيوط حمراء، شهب بنّية تتألق في مسار دائريّ ، تتلألأ نوارس من جمر، تسّاقط نجوم الدمع، فيندلق الحزن في قلبي..

وقلبي صوت يتكور في حنجرة الليل، يرتعش على هدهدة الأنين، يتكسر كأجفان المدينة كعينيها

السوداوين المحروقتين، أيام وأنا أنقّب عن القطرة، لم أترك صيدلية في البصرة، أعود ذليلاً، خاوي الكفين.

أحدهم نصحني أن أبحث عنها في بغداد، وعليّ السفر قبل أن يموت الربيع.

الواحدة بعد منتصف الليل، والحافلة تقلّني إلى بغداد، على يساري يستسلم رفيق سفري لمراكب النوم، عيناي مشدودتان إلى الطريق، أوهام وأفكار غريبة تتأرجح في مخيلتي، ستائر كثيفة تحجب شمسي التي تبحث عن فترة صحو.

عندما لفظ الصبح أنفاسه، كنت أواصل رحلة البحث عن أملي الضائع، واللهفة تلبسني فضاء أسود..

في نهاية الرحلة عثرت على القطرة، وفي جيبي ما يكفي من الدنانير للعودة إلى البصرة.

قبيل الغروب، وصلت والقطرة تكاد تتكسر تحت ضغط قلبي الممسك بها.

على جناح من عبير سندسي، حملت أملاً إلى الطبيب، فأنكرتني أجنحة العبير...

- (القطرة منتهية الصلاحية، لا فائدة منها).

- ما العمل يا دكتور ؟

- عليك تأمين القطرة بسرعة كبيرة.

ـ ماذا أفعل يا ربي ؟؟

عندما يحيط بنا العجز، ونكون على وشك الغرق بمياه الضعف، نلجأ إلى الله، نتمسك بأذيال الأمل، نتضرع إلى الله بالدعاء.

كغجري يطوي قلبي خيمة أحلامه، يتشرنق بحزنه يعمده الانكسار، وعلى ضفة اليأس أشعل شمع النذور.

جلست وزوجتي نفكر بالأمر، وضوء الشمعة يلقي بشحوبه على المكان..

ـ يجب العودة إلى بغداد، نقودي نفدت، التنقيب عن قطرة أمل نقّب عظامي، النقود شربت ماء وجهي، شبح الدين يعتلي أوصالي، لو تشفى أمل لهربنا إلى بلاد أخرى.

في الصباح أحاول استدانة المبلغ، أطرق كلّ الأبواب، ثم أسافر ونوارس الأمل تحلق من جديد، تلوّح لحلم يسكن الغياب، تغني لناقوس الأمل الأخير..

السيارة ترتسم الطريق، وسط مسافة شاسعة بين الخوف والأمان، المآذن تكبر باسم الله معلنةً بدء شهر الصوم، المدافع تعلن فرحتها، صواريخ الموت الأميركية تعلن إفطارها الفاحش على مدن العراق، وجوه المسافرين المتعبة تئن، ألسنتهم تلعن أميركا العاهرة، آذانهم صاغية إلى صوت المذياع يبثّ تفاصيل العدوان، أصوات متلاطمة

في بحر غاضب، أضاعت جهة الإبحار، ترسو على مسمعي:

ـ فعلوها أولاد الـ...

ـ لا رحمة في قلوبهم.

ـ ناموا واحلموا أ ّيها العرب...

... ...

من فتحة الحافلة المستقرة في السقف مع هواء الليل الملوّث برائحة البارود، يتسرب عبق النهر الملتاع تدخل إلى القلب نسمة أمل، ينثرها صوت طائرة توزع الموت، يحمل رمادها صراخ صفّارات الإنذار، القلوب اشتعلت شيباً، بلغت من الكبر عتيّا،

الدم يشبع نهم الأرض، لا صوت سوى الاستنكار بألسنة مبتورة..

مموسق هو الحزن، كضحكة أمل، شامخ كنخيل شط العرب، تضحك فيلبس قلبي الفرح، تشق الورود درب الأماني..

في كل صيدلية دخلتها، نزفت قليلاً من دمي وكثيراً من دموعي، نفد الصبر، كما نفدت القطرة من الصيدليات.

أين أنت يا أمل، مازلت تقاومين صواريخ الموت، إنّي قادم إليكِ، سأموت معك ، لن تموتي وحدك.

قارس جمر الخيبة، خانق صوت الفناء، كطعم الهواء حين يغفو على كدر الغبار.

الجوع يعتصرني، أذان المغرب يقض صمت الصيام، نفسي تتمزق في السباحة بين شاطئين بعيدين لحظة دخولي البيت، مع صوت إغلاق الباب، كسمكة تقاوم شباك الصيد، تركت أمّ أمل رغيف الخبز اليابس، وكأس الشاي المكرّر

وبفرح طفولي، تستقبلني وهي تسأل:

ـ (ها عيوني بشِّر..)

أرد بخيبةٍ:

(ما كو عيني).

من دفاتر الربيع

(مساء الحُبّ)

نيسان عروس تغطي المدى بثوب الربيع، الشمس طفلة ترتقي درجة الرحيل الأولى... روحي فراشة تطير إلى درس الألق والاحتراق الجميل...

كشروق يطلّ قلبي، ينقر بابها ، فتأتي كشراع مضى....

بأنامل من حروفي، أهزّ صوتها ، فيخضل قلبي بنشوةٍ تثمل جنائن العطر...

ـ عصر الحبّ.

ـ تفضل.

أدخل صومعة الحبّ والدرس، أجلس على كرسي المنى تفصلني عنها (طاولة) أنيقة. قبالتي تجلس كزهرة

ليمون، تناغي حبات المطر، فيضوع عطرها أرجوانياً... يمسح عن مهجتي عجاج الحزن..

على يميني نافذة من بّلور وأمل، تغطي نصفها عريشة ياسمين وغصن ليمون، وعلى يساري صورة لشوارع المدينة العتيقة، تسيّجها خيوط الفرح فتبدو كحلم يضحك في المهد...

بيني وبينها مسافة جملة تحبّ النقاط بعدها تخشى الفاصلة، تبحث عن الضمّة الأولى، تخاف الكسرة الأخيرة... أفتح كتابي وتفتح دفترها.

ـ هل حفظتِ قصيدة الأمس ؟

ـ نعم.

ـ أسمعيني.

غنّى فشاقك طائر غريد
لما ترنم و الغصون تميد
ساق على ساق دعا قمرية
فدعت تقاسمه الهوى وتصيد
إلفان في ظل الغصون تآلفا
والتف بينهما هوى معقود

يـــا طائـــران تمـــتعا هنيـــتما

وعمـــا الـــصباح فـــإنني مجهـــود

صوتها رسالة تلفها أغنية من قرنفل، يغطيها جفن من حبق وزيزفون...

ـ أعيدي القصيدة.

ـ لماذا ؟

ـ لتصحيح الأخطاء.

ـ لكن لا يوجد أخطاء.

ـ بلى، أعيدي،

تعقـد حاجبيها، فيرتـديني الفـرح، وصـوتها يعشش في مـسمعي وصـدري... فيـسقط قلـبي بـين راحتيها وهـي تعيد القـصيدة، أود لـو أضـمّ صـوتها، لـو أقّـبل يـده... تنهـي القصيدة وهـي تسأل:

ـ أين الأخطاء ؟

ـ لا يوجد أخطاء.

تمـصّ شـفتها كأنّهـا تعتـصر قلـبي، وتـسكب دمـي على مرايا العذاب.

ـ ماذا سنأخذ اليوم ؟

ـ سنأخذ قصيدة جديدة، سأقرأ القصيدة.

أقرأ القصيدة كأنّي ألبسها قلبي وصوتي فتبدو كطفلة خائفة من الليل تتشبث بصوتي وذراعي، تداعب قلباً أصبح رماداً ليورق من جديدٍ...

ـ أعد قراءة القصيدة لم أفهم بعض الكلمات.

ـ أعيد قراءة القصيدة وهي تبتسم،أشعر بقلبها قوس قزح تحمله فراشات الروح وهو يعبر قلبي ليرقد حيث الدفء والأمان...

انتهينا من الدرس والسماء كقلبي غيوم دامعة تمطر فرحاً، فتنقر نافذة البلور والأمل. تحلّ ربطة شعرها فيضيء قمر الوجه ليل الحزن الفاحم..

كأنها ترخي ضفائر الأمل وتقول تمسك بها، فالريح هوجاء... تغلق الدفتر، وهي تقف كنخلةٍ على ضفة العمر يضمها الغروب، سعف يتوهج احمراراً

ـ سنشرب القهوة ريثما يتوقف المطر.

ليل يتناثر على الكتفين ووجه أبيض يرشف حبّي يرتل أحلام الزمن المستحيل.. كأوروبا تمشي وهي تحمل على ذراعها سلّة القصب، وراءها تمشي وصيفاتها بين الورود، فتنجذب الورود إلى سلتها دون أن تنحني إليها...

أرشف قهوتها وأنا أضمّها بعيني وقلبي وروحي.

أتمنى أن يبقى طعمها في فمي، أودّ لو أبقى دون طعامٍ دون ماءٍ...

توقف المطر والوقت يسحب المرساة، يمدّ أشرعة الرحيل.... قلبي يمشي خطوة إلى الأمام وأخرى إلى الوراء، يلثم خطو أنفاسها، وهي تمشي أمامي كأضمومة نرجس يلفها من عبيرها الضياء يصافحني بلا انعتاقٍ...

لؤلؤتان على حافة الانهمار، قلبي ينزع قبعته يضعها على صدره، وينحني أمام جلال الوداع...

مساء الحبّ.

الليلة الثالثة بعد الألف

البرد يذبل الروح، الذكرى قلب يورق بالدفء والأمل...

على أخمص بندقيتي الخشبي، نقشتُ أوّل حرف من اسمينا ضمّهما قلب صغير يتسع لكون...

بعد قليل تنتهي نوبة الحراسة أفكر بكِ أيّتها الوتد المتجذر في منتصف القلب... تُراكِ ماذا تفعلين الآن ؟ هل تحتسين الشاي، أم تشعرين بالبرد مثلي، أم تنسجين قصيدة لبرد عمرنا القادم من ضباب السنين...

منكِ خطفني خيالٌ يقبل نحوي، أوقفته:

- قف، من أنت.
- دوريّة.
- كلمة السّر.
- طبرية.

ـ تقدّم.

ـــ بعـد أن تنتهـي نـوبة حراسـتك، علـيك أن تحـضر الاجتماع في الساحة، لا تتأخر، عُلِم الأمر.

ـ حاضر.

أنهى رئيس الدورية كلامه وتابع طريقه، لكن لماذا الاجتماع في مثل هذا الوقت ؟

عادة لا يطلب الاجتماع إلا لأمر هام جداً...

كلّ شـيء كـان طبيعـياً الـيوم، الـضباط كانـوا يـشربون المتة، ويلعبون الـورق، وبعـضهم يلعب النـرد وهـم يضحكون...

الانتفاضـة مـشتعلة، إسـرائيل تقـصف وتقـتل وتحـتل، والعملـيات الاستـشهادية مـستمرة، العـراق يُقـصف بالطائرات الأميركية والبريطانية...

انـتهت نـوبة الحراسـة، وأخـذت صـفارة الإنـذار تفض عذريّة الليل...

هـرعنا إلى الـساحة، وأخـذ كـلّ واحـد مكانـه في الصف.

اكتمل الاجتماع، جاء قائد الوحدة ليبلغنا بالأمر...

ـ أيّها الجنود، إننا الآن في حالة استنفار، مِنَ المحتمل أن يقوم العدو بغارة جوّية، قد ننتقل بعدها إلى الهجوم، عليكم تشديد الحراسة والانتباه أكثر من اللازم، وعلى الرصاد أن يأخذوا مكانهم حالاً، وعلى باقي الجنود إطفاء الأنوار، والتقيد بالهدوء التام، والبقاء داخل المهاجع، وعند سماع صفارة الإنذار، ارتداء لباس الميدان، واللجوء إلى الخنادق بسرعة تامة، والانتباه إلى الإشارة التالية.

انتهى الاجتماع وهرعنا كلّ إلى مكانه.

بعد أربع ساعات سوف تبدأ نوبة حراستي الأخيرة التي تنتهي في السادسة صباحاً، عليّ التوجه إلى المهجع لتجهيز نفسي، إلى أن تبدأ نوبة الحراسة...

منذ زمن وأنا أنتظر اللحظة التي أواجه فيها العدو...

لا أخاف الموت، الشهادة حياة جديدة الموت يلغي شقاء الحياة...

ما كان يشغل قلبي وروحي، حبيبتي القابعة في صومعة الانتظار والشوق، حلمنا بالعش واللقاء...

سأكتب لها رسالة ولكن ماذا سأقول فيها، ومن سيوصلها إليها، هل سأقول لها سأموت وستتبدد أحلامنا، هل سأقول لها لا تنتظريني...

هـل سـأقول لهـا سـوف تـتحقق أمنـيتي وتنتهـي كـلّ مشاكلي، هكذا عبر قارب ميناء عمري بسلامٍ...

الآن بدأت نوبة حراستي، البرد يغرس سهاماً رفيعة في الجسد تصل حتى النخاع الشوكي، الجبال مغطاة بالثلوج والهواء يثقب الروح...

ليالـي الشتاء طويلة، والليل عباءة حالكة الحزن تلقي بثقلها على المكان...

مـن مكـان الحراسـة غيـر البعـيد عـن غـرفة العمليات أراقب سيّارة دخلت مطفأة الأنوار، وقفت أمـام الغـرفة، تـرجل مـنها شـبح دلـف مـسرعاً إلى المكـتب... الـستائر مـسدلة علـى نـوافذ غـرفة العملـيات وأشـعة حمـراء تغطـي الـستائر... ضـحكات امـرأة تتـسلل إلى سمعـي، وصـخب هادئ يخاف البرد، يحتمي بدفء أحضان غرفة العمليات.

الـبرد وخيبة الـشوق إلى اللحظة المنتظرة أحدثا صوتاً في القلب كصوت رصاصة تخترق قلباً من زجاجٍ...

ضـحكة شـهرزاد وهـي تخـرج مـن غـرفة العمليات إلى الـسيارة المعـتمة، قـبل هـزيمة الليل، كـانـت إشـارة نهايـة الاستنفار.

الصوت العميق

جرس المدرسة شمعة فرح، قلبي كما الطلاب يلقي حقيبته في الهواء ويردد لحن الانصراف....

الشمس عذراء تختلس النظر من خمار الغيوم، الطريق غسلته أمطار الأمس، والحفر غمرها الماء، فبدت كقطع المرايا وقد لبست لون السماء..

يداي تجمد فيهما الدم وقد أمسكتا مقود الدرّاجة الطريق شامخ والهواء، شرس، وجهي يصدّ الهواء ألتفت إلى اليمين وبطرف عيني أرى الطريق، قدماي تدفعان عجلتي الدرّاجة بقوة... لحظاتٌ كلحظات المعركة تمرّ عسيرة لينتهي شموخ الطريق

البيت بارد وجسدي يشتعل حرارة..

كعصفور أجفلته رائحة البارود، أتناول طعامي وأمضي...

المسافة طويلة والدرّاجة تلتهم الطرق والهواء أنهكه التعب، سحابة فرح تعبر قلبي، روحي طائر يخفق بجناحين من زئبقٍ، يتجاوز قضبان المدينة يتشبث بحزمة أمل...

أدخل محطتي الأولى.

عيناي تتأملان غرفة الاستقبال، قلبي وقع في شباك الحسرة، مدفأة في مواجهتي تتوهج فيها النيران كما قلبي تتوهج فيه الدماء، أريكة كسماء مرصعة بالورود، سجادة كأرض حديقة...

ـ هل كتبت موضوع الأمس ؟

ـ أستاذ، البارحة كنت أحضّر لامتحان الفلسفة، لم أستطع كتابة الموضوع.

صوت الهاتف (النقال) سكين تقطع الدرس، يردّ:

ـ أهلاً.. كيف حالك..

لماذا لا تستطيعين القدوم ؟

حسناً تعالي غداً، قولي لهم سأحضر درساً، غداً سيحضر الأستاذ... (أوكي)...

البسي البنطال الأخضر أحبّه و المعطف الأسود... (باي)..

بركان يتفجر داخلي، شظاياه تلسع روحي، تذيب قلبي...

تقدّم أمه القهوة وهي تشتكي:

ـ لا أدري ماذا أفعل معه ؟

لقد أفقدني صوابي، رغم أنّه لا يحتاج إلى شيءٍ أولاد الجيران متفوقون في الدراسة رغم أن والدهم يبيع علب التبغ المهربة في الشارع، ليؤمن لهم ثمن الخبز...

تفتح علبة تبغ أجنبية، وتضع لفافة التبغ بين شفتيها لفافة لها رائحة تشبه رائحة فاكهة ما..

ـــ أستاذ لماذا لا تسافر وتعمل في الخارج، أليس أفضل من هنا ؟

ـ ليس أغلى من الوطن.

ـ أعرف الأستاذ خالد منذ عقدين، البارحة رأيته، ما زال يركب درّاجته وقد أصابها الصدأ، شعرُ رأسه أصبح رماداً، لباسهُ اللباسُ نفسُهُ، وحقيبته الجلدية نفسها غير أن لونها تغير من بنيّ إلى برتقاليٍّ..

الوقت صافرة تعلن نهاية المحطة الأولى، السماء تلملم الغيوم، والشمس هالة من بنفسجٍ...

نصل حاد ينغرس في نفسي والغيوم تزداد كثافة، والريح تنذر بدموع غزيرةٍ.. بدأت أنامل المطر تعزف موسيقا صاخبة، والريح ذئب يعوي...

حنين يعربد داخلي، حنين إلى بيت دافئ وحمّام ساخن، وزوجة تنتظر... نجلس معاً، نراقب من النافذة عزف المطر ورقصة الريح

حفرة كادت تطيح بإطار الدّراجة الأمامي، أيقظتني وسرقت حلمي...

تذكرتُ وجوب مروري إلى المكتبة العامة واستعارة ديوان الشِّعر، قبل ذهابي إلى المحطة الثانية.

ألح عليّ أمين المكتبة لكي أتناول كأس شاي؛ الوقت يداهمني، ويداي تحضنان كأس الشاي، تشعران بالدفء يسري داخلي...

عند باب المكتبة كان الشارع خالياً والرصيف وحيداً من دون درّاجة والمطر غزير...

بدا الذهاب إلى مركز الشرطة بعيداً، سوف

أتأخر عن الدرس الثاني وتحضير دروس الغد..

يتسلقني الحزن وأنا أمضي، وبداخلي يتردد صوت عميق...

ليس أغلى من الوطن.

شهيدٌ واحدٌ لا يكفي

دافئة كلحظة اللقاء، زهرة المدائن وهي تفرد جناحها على المدى كحمامة بيضاء ينزف جرحها عشقاً، تعطرها أزهار الليمون والبرتقال المعمّدة بندى الربيع...

تكبيرات المآذن تدعو إلى صلاة الجمعة، وطيور خالدة تنقر الحبّ، تشاركها طيور الجنة التي تأوي إليها، آه كم يحبّها خالد...

تراه ماذا يفعل الآن ؟ أيرقد على بساط التعذيب، أم في زنزانته مكبلُ بزرد السلاسل، أم في غرفة التحقيق أم أنه معّلق في سقف المعتقل، لقد منعوا عنه الزيارة..

وحمزة أين هو الآن، في أيّ جبل، أم في أيّ مخيم أم أنه في المعسكر ليكون مشروع شهيد...

منذ ثلاثة أشهر، لم أره، لم أسمع عنه شيئاً...

قلتُ له: لقد جاءنا إنذار من السلطات الإسرائيلية، وإذا لم تسلّم نفسك فإنهم سينسفون المنزل.

قال: فليبلطوا البحر.

قلتُ: أريدك شهيداً.

قال: لقد ذهبت إلى كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام قالوا لي: لدينا الكثير من الفدائيين، لا مكان لك الآن.

قلت: أريدك شهيداً، اذهب ولا تعد إلا شهيداً.

تلك كانت الزيارة الأخيرة، خرج قبل أن تداهم دورية الاحتلال المنزل بدقائق قليلة...

عندما رفعت سجادة الصلاة، دخل عمر لاهثاً وهو ينادي أمي أمي...

يكاد يختنق، عرفت أنه استنشق الغاز المسيّل للدموع، تناولت قطعة من البصل ليشم رائحتها...

ـ أين كنت ؟

ـــ بعد الانتهاء من صلاة الجمعة، رشقنا جنود الاحتلال بالحجارة، لقد أرادوا منعنا من دخول الأقصى لأداء الصلاة. هل تعلمين أن مدينة جنين محاصرة، لقد قصفتها طائرات (الأباتشي وإف 16) ليلة البارحة، ولم تسقط...

دبابات الاحتلال تتجول في شوارعها، ولا أحد من جنود الاحتلال يستطيع أن يخرج رأسه منها، جندي يقود دبابة ويخاف من حجرة.

جُـنّ اللـيل وزهـرة المـدائن عابقـة بـرائحة البـيارات والبارود ودوريات الاحتلال.

قبل النوم سمعتُ حركة غريبة في باحة الدار عندما خرجتُ كان حمزة يهمّ بالدخول...

ـ لماذا جئت، لا تدعني أغضبُ عليك.

ـ انتظري أمي، لا تظلميني، لقد جئت لأودّعكِ لا وقت لديّ تنفيذ العملية عند الفجر.

عندها حضنته، قبّلته وقبّل يدي ورأسي، شممتُ رائحة عشقه القدسي، وحزنه الفلسطيني...

ـ العشق يا ولدي، ليس معاهدة سلام أو تصريحاً على شاشة الخديعة.. العشق عملية فدائية يصعب فيها التمييز بين الأرض والجسد... الدم يغذي شرايين الأرض لتنبت منها شقائق الحياة...

العشق يعني الموت، اطلب الموت يوهب لك العشق.

ـ هل تعرفين ماذا أتمنى؟ أتمنى بعد أن أموت أن أحيا من جديد، وأفجر نفسي من جديدٍ..

بقبلة وشريط أخضر على الجبين ودعته.. قبّل أخاه وذهب وهو ينظر خلفه.

ـ لا تلتفت إلى الوراء، انظر إلى الأمام...

في اليوم التالي، عندما أعلنت الإذاعات، عن تنفيذ عملية استشهاديّة في القدس، ذهب ضحيتها عشرات القتلى والجرحى، وأعلنت كتائب الشهيد عزّ الدين القسّام مسؤوليتها عن العملية ورأيت حمزة على شاشة التلفاز يلقي كلمته الأخيرة، وهو يحمل المصحف في يد والبندقية في اليد الأخرى اطمأن قلبي...

تمنيتُ أن تنحدر دمعة واحدة من عينيّ، لكن عينيّ كانتا ترنوان إلى زهرة اللوز المتبقية.

اسطوانة الأوكسجين

لم أكن أريدك أن تسافر..

قلتُ: دعنا نواجه ريح الزمن، كتفاً بكتف، يكفينا كوخ من قصب وحبّ ونهر أغانٍ ونخلة وقمر..

المدينة سنابل تذوي تحت شمس الانكسار، الأجساد تتقطر عرقاً، والهواء ساخن يلفح الوجوه.. أنامل البعد تجعّد وجه الصيف، الحلم ربيع يفتق براعم الذاكرة...

وحيدةً يؤرقني الحرمان، كالثلج تذوب روحي في رحلة صعبة من النسيان..

قدماي تحسّان بضعف الأسفلت، كأنني أمشي على الطين، يتلبسني حزن عميق ورائحة الياسمين تعبرني، لمن سأقطف الياسمين ؟

تتنامى ضفاف اللهفة، وينتشي الحزن على طريق البيت.. من الشرفة تطلّ ديمة وهي تلوّح بيدٍ من أملٍ، تفتح الباب، تعانقني، وتسأل السؤال ذاته:

- متى يعود أبي ؟

أقلب الصحف عسى أن أعثر على قصيدة ترتدي قميصك

أو تتعطر بعطركَ، عسى أضيع في غيمة من شذاك،

القهوة لا طعم لها، عليّ أن أستبدل بها مشروباً آخر أكثر مرارة..

من جهة الجنوب تقبل غيمة سوداء كبيرة، يختلط فيها لون برتقالي غامق وهي تفور وتتكاثف وتغلي كأنها حريق لبئر نفط قد انفجر بعيداً... تهرول باتجاه المدينة التي أصابها الشلل، الناس كالسكارى وقد خرجوا إلى أسطحة المنازل ليتبينوا تلك الغيمة وتتعالى الصرخات: جاء العجاج...

أغلقتُ النوافذ والأبواب والعجاج يتقدم رويداً رويداً

المدينة تغرق في ليل من الغبار الأحمر، والغبار يتساقط ذرّةً ذرّةً

ديمة باغتتها نوبة الربو، ويداي يد تمسك المنديل المبلل بالماء وتضعه على أنفها وفمها،

ويدٌ على قلبي...

الليل الطويل الخارج من رحم النهار يزيد المدينة غرقاً بالغبار.. وديمة كسمكة تختنق خارج الماء، أحضر اسطوانة الأوكسجين وأضع الكمّامة على أنفها وفمها..

أين أنت الآن ؟ لو كنتَ معي..

ديمة تحتضر بين يديّ، اسطوانة الأوكسجين نفد منها الأوكسجين..

كالمجنونة حملتها وخرجتُ إلى الشارع، سائق سيارة الأجرة يهمّ بإقفال سيارته ليصعد إلى منزله.

أرجوك بسرعة إلى مشفى الأطفال.

مآذن الجوامع ترتل القرآن، وتدعو الله أن يرفع الغمّة عن المدينة.

أحسّ أن السيارة تسير ببطء، أودّ لو أنزل منها وأركض بديمة.. سائق السيارة يردّد:

ـ ماذا يرى الله غير الفسق والفجور ؟

لولا الرجال الصالحون لهلكنا...

ساعات من الخوف والاختناق البطيء ترسو مع الغبار وقد غطّى كلّ شيءٍ، ودخل أعمق الأماكن حتى القلوب..

اطمأن قلبي وديمة ترقد على السرير، والكمّامة تغطي نصف وجهها..

أينَ أنتَ الآن، تراكَ ماذا تفعل في غربتكَ، كيف تذيب صقيع أيامكَ ؟

لون السماء بدأ يتغير، كأن رسّاماً ماهراً يخفف من حدّة الألوان من الأسود إلى الأحمر إلى البرتقالي إلى الهواء الممتزج برائحة الغبار...

يرحل العجاج فتبدو المدينة كمدينة يفتش المنقبون عن تاريخها الضائع في زحمة الأزمنة العتيقة..

ديمة تتفتح كأجراس الياسمين وقلبي يحتضنها يقبّلها يدور بها...

تنظر إليّ بعينين متعبتين وقلب يقول:

ـ متى يعود أبي ؟

المدينة الجديدة

النهر وجه يشعّ بالألق، يهدهده الزلّ والغَرَب والليل شالٌ من حريرٍ.. البرد يدغدغ الجسد فينشر فيه الخدر اللذيذ.

كلّ شيءٍ تغير والأيام غريبة تأرجحني بين القيّم واللا قيم بين الأخلاق والرذيلة، رصيدي من القيم لم يعد يصرف في (بنك) الحياة، فأصابني الإفلاس ولوثة العولمة...

صنّارة الصيد تغفو هادئة بين (روجات) النهر وإبريق الشاي يثرثر على نار الحطب، الصيد أصبح بلا متعة، والشاي ليس له طعم الشاي..

تشدني تلك الجارة وهي تحاول إغوائي، أنا الذي وُلِدتُ وفي فمي ملعقة حزن.. أنا القادم من صحراء الخوف والخفافيش الجارحة.. أخاف أنْ تقول:

أيّها الذئب أشم رائحة الحرمان تفوح منك...

تعال اسقِ عطشكَ.. ارتوِ من نهري سوف تشعر بالأمان.

الليل ساجٍ، وصنّارة الصيد تغط في نوم عميق بين حنايا الماء، والسّلة ما زالت فارغة..

النهر يرحل إلى الخليج، تُرى هل سيطلب منه جواز سفر؟

الأميركيون والبريطانيون ما زالوا يحشدون القوات فيه، والمدمرات ما زالت تعبر قناة السويس إليه، والعراق ما زال يحشد الدماء والأرواح.. ويزرع الورود في غابة الشهداء.. أقمار القذائف ترسم نجوماً من لون أحمر، تغطي الصدور...

الليل تجاوز منتصفه، وأصوات السكارى تخدش حياء الليل، جفناي يعتصران النعاس والتعب وظهري مسندٌ إلى جذع النخلة..

الليل جَفن ناعس، سيارة الإسعاف امرأة فقدت وحيدها، والضوء الأحمر يحوّم فوقها..

يبدو أنّ جرحى الحرب العراقية قد وصلوا إلى المشفى...

استيقظت المدينة، واستنفر الجميع، الأطباء والمسؤولون والحشاشون واللصوص ومَنْ يبحثون عن عمل...

سأذهب إليهم، سأقبلهم واحداً واحداً، سأتبرع بدمي لهم..

تثائب الليل ونام الضجيج، واللهفة تسبقني إلى المشفى، يستقبلني أبو محمد حارس المشفى وعيناي جمرتا شوق يعربد فيهما السؤال:

ـ كيف حال الجرحى ؟

ـ لم يصل أحدٌ منهم.

ـ لكن الـ...

ـ إنها (أمُ عَرَبٍ) نزيلة المشفى.

ـ (أمُ عَرَبٍ) ؟

ـ نعم.

المفاجأة أماتت لهفتي وعيناي تراقبان أكاليل الورود وهي تغطي طريق المشفى والمدخل.

ـ ماذا أصابها ؟

ـ لقد وصلت إلى المشفى في حالة إسعاف وضعوها في

جناح خاص، قالوا: إنّها تعاني من التهاب الزائدة الدودية، وتحتاج إلى عملية جراحية وقاموا بإجراء اللازم.

ـ إنّها امرأة طيبة، لقد توسطت لابني وعمل (فرّاشاً) في إحدى شركات النفط، لكنني أصبحت أخاف عليه، فمنذ فترة ضبطته وهو يتفرج على مجلة إباحية، عندما سألته عن مصدرها،

قال: إنّ أحد العمال الأميركيين أهداه إياها.

أنكرتني غيومي وابتعد البخار... ومن عليائي هويت كالغبار على الغبار...

ينظر إلى السلة..

ـ أراها فارغة.

ـ على قدر بساطي أمدّ أحلامي.

ـ ماذا تنوي أن تفعل فالأيام القادمة عصيبة.

ـ لا تخفْ الغد كالأمس.

ـ هل تعرف الحقيقية ؟

ـ الحقيقة ذاكرة تولد ضائعة، عندما تكبر تجد طريقها ولكن بعد أن يمضي الأوان..

ـ لقد سمعت الأطباء يتهامسون حول حالة

(أم عَـرَبٍ)، وهـم يـضحكون.. عـندما وصـلت إلى المشفى في حالة إسعاف، كانت تسهر عند المستر جورج الخبير الأميركي الذي يعمل في شركة النفط، وبينما كان يلعق لها ، قضم عنوان أنوثتها ، بل قضم عنوان رجولتنا.

المؤقتون

جرس (المنبّه) يدق..

تهرب حورية أحلامكَ، والكسل يعشش على الجسد الدافئ تحت الفراش، فيرفض الخروج من قمقمه.

السّنة ترتدي معطفها، تغطي وجهها من دبابيس البرد.. سنة أخرى تنظر الولوج إلى دهاليز المجهول، بحذر شديد تحبو على ضفاف الرحلة...

اليوم الأخير متقهقراً يمضي، والزمن يسبقنا..

أمس..

مشّطتكَ الطرقات، وأنت تلاحق خيالك المتمرد يتكاثف ضباب ليلكَ، يقودك التعب إلى الحديقة. أشجار الصنوبر المرهقة، يعتصر البرد عينيها فتنزل حبات الندى

تغطـي عـشب الليالـي القاسـية.. المـصابيح تمـدّ الـضباب بحُمرة شفيفة تلقي بنفسها على الأشياء. على مقعد يلتحف الـرطوبة ألقيت بجسدك، حديث يأتي من خلفك، يتسرَّب إلى أذيتك

ـ لقد انتظرتكَ كثيراً، وسأنتظر أكثر.. لكنّ أهلي لا يحتملون صبري، سنين العمر تحطمني..

تقدّم لي شاب.. ماذا تنتظر ؟

ــ لا أزال أحـاول تجمـيع نفـسي، أحـبّكِ.. ولـن أتخلـى عنك.

ـ إلى متى !!

ـ حتى تتغير الأمور.

... ...

تنهض من مكانك، تعود إلى عشّك البارد، وكتفاك أرقهما معطفك الثقيل الوحيد، مثلما أرّقك السّهر..

الـوقت يطـاردك، ستتأخر عـن عملـك، تطـوي جـراح أيامك وتذهب..

تـدخل المؤسـسة، تـرى المديـر الإداري، ينظـر إلـيكَ يـراقب سـاعته وأصـابعك المـتجمدة وهـي تلملـم نفـسها للإمساك بالقلم، يعدّل نظارته، ينظر بدقة أكثر للقلم

وهـو يخـط التوقـيع، تنظـر إلـيه، يـرتد إلى الـوراء، يعـدّل ربطة عنقه، تصعد درج النهار وأنت تبحث عن نسمة دفءٍ

يرتد بصرك إليه، وهو يوبخ زميلةً تأخرت..

تعتذر منه لأنها أوصلت طفلها إلى المربية..

ينذرها بحسم أجر يوم إن تأخرت.

تصل غرفتكَ، يحيط بك حنان الدفء، ترشف القهوة وأنتَ تسمع زملاءك يتحدثون عن مصاريف العيد، عن مشاكل العمل الثاني، ينصحونك بعدم الزواج..

ـ الزواج مسؤولية كبيرة.

ـ إذا لم تكن على تلال من النقود، فلا تتزوج.

تردّ بخيبة صامتة: النقود ليست مهمة، هناك ما هو أهم.

ـ تزوج وستدفن هذه الرومانسية.

تتعالى أصوات الضحك الحارة، لتذيب صقيع قلوب تجمدت منذ سنوات بعيدة..

تفكّر بإجازة الامتحان والسفر إلى الجامعة، لكنّ صوت المدير الإداري يمزّق متعتك في التفكير بها.

لا تنسَ أنّكَ مؤقتٌ..

كلمة (مؤقت) كأنها نصل يخترق قلبكَ.. يقطّع روحكَ..

تشرد قليلاً وأنت تقلّب صفحات الجريدة، فتعاف نفسكَ الأخبار.

حركة غريبة تسري داخل المؤسسة، يطرق بابك زميلكَ كامل، يسألك: ألم تسمع بالإشاعة ؟

أي إشاعة ؟

ـ يقال بأن العمال المؤقتين سيفصلون من العمل.

ينظر إليك كامل وهو يترنح بحديثه: ماذا سأقول لزوجتي ؟ لقد فصلوني من العمل، ست سنوات وأنا أعمل هنا، في كل يوم أنتظر التثبيت، لكن التثبيت أصبح سراباً، بعد ست سنوات أفصل من العمل !!

أين سأجد عملاً ؟ فواتير الماء والكهرباء وأجرة المنزل وحليب الطفلة... كلها لا تستطيع الانتظار.

هل سأنتظر مصروفي من زوجتي ؟

تشعر بألم في الجزء الأيسر من صدرك، تبث الأمل أمام زميلكَ. إنّها إشاعة، قد تكون ضحكة آخر يوم في السنة.

يردّ بصوت محروق: لا دخان من دون نار.

بسخرية تتحدث عبير وهي تردّ شعرها إلى الوراء:

أنا لن يستطيعوا فصلي، هم يعرفون من الذي فرضني..

حتى وإن فصلتُ من العمل، سأعود بهاتف صغير

سَحَرُ يتقطر وجهها بندى الحزن: إنني أفضل الجلوس في البيت على العمل، لكن المشكلة في المستقبل، أتوقع أن خطيبي سيرمي خاتم الخطوبة في وجهي، شباب هذه الأيام يفضلون الزوجة من أجل راتبها.

تبكي منار وهي تهذي: كيف سأستطيع إكمال دراستي ؟

ما زال أمامي عامٌ على التخرج، كيف أتدبّر أمر السفر إلى العاصمة ؟ لو كان في مدينتنا جامعة، لما سألتُ عن العمل.

ـ سنذهب إلى النقابة.

ـ النقابة لن تفعل شيئاً، سيقولون: إنّ قانون التثبيت لم يصدر، وما زلنا نطالب به.

ترميهم بورود الأمل، وأنت تحاول نفي الأمر،

وتستر وجع صدرك...

يوزع الأمر الإداري:

(يفصل العاملون المؤقتون من المؤسسة ، وذلك لعدم الحاجة إلى خدماتهم).

وشمٌ في الذاكرة

حبات التراب ترشف قطرات الندى، نسيم الصباح يخفف عرق الليالي، رائحة العشب اليابس وقد امتزجت بالرطوبة تجعل النفس عصافير نشوى..

الرطوبة تنذر بيوم شديد الحرارة، والشعلة غجرية تتلوى على إيقاع الغاز.. عيناي تراقبان محركات الضّخّ ووصلات أنبوب الغاز الذي يمتد على طول الحقل.

عبد الله يدور حولي و بداخله سؤال يحرقه:

ما نتيجة الحبة الزرقاء؟ لقد سأل عنك المستر هنري ليطمئن على أحوالك.

ـ لقد أعادتني تلك الحبّة كما لو كنت في العشرين من عمري.

يضع الخوذة الصفراء على رأسه ويلملم الكوفية المرقطة على كتفيه وهو ينادي:

ـ لقد وصل الخبير الكندي مستر جونسون يتفقد العمل.

أقبل والنظارة السوداء تخفي عينيه، يقترب، يخلع النظارة ويراقب خط أنبوب الغاز...

هذا الوجه أعرفه أعرفه جيداً، وشمٌ في ذاكرتي..

وجه يلبسه الحقد وعيناي يسكنهما اللؤم..

قلبي عصفور بلّله القطر..

ويلاه..

كيف وصل إلى هنا ؟ ما الذي أتى به ؟ ما الذي يدّبر؟

سؤال يلسعني إثر سؤال..

هل سيفجرّ الحقل ؟ هل يتجسس على الحقول ؟ ما الذي سأفعل معه ؟ هل أسترد ثأري وأقتله ؟ أم أخبّر ضابط أمن الحقل عنه ؟

كان يوماً خريفياً..

النفوس كسّرتها الهزائم، واليأس تعنكب القلوب.

الساعة الثانية بعد الظهر، ساعة الصفر والفرح المباغت..

ارتفعت الجاهزية القتالية إلى الدرجة القصوى وجاءت برقية الهجوم، وتحركنا يدفعنا الحبّ والأمل..

على يميني دبابة قائد السّرية الملازم جوزيف بصوته العذب يوجه أمر القتل:

ـ قائد الفصيلة الثانية، كيف تسمعني أجب.

ـ أسمعك أجبْ.

ــ دبابة معادية على بعد ألف متر، نقطة علاّم رقم اثنين، دوّر البرج إلى اليمين، إذا كنت جاهزاً نار

ـ أصيب الهدف، الاستهلاك قذيفة واحدة.

كان يصوم معنا، ولا يأكل إلا عندما نأكل وقت الإفطار.

الدم يجري في عروق الأرض، الاحمرار يعتلي وجنتيها، تبتسم كالعروس ليلة الزفاف.. علم الوطن أغنية تناغي التلال.. تل الشعّار وتل أبي الندى وسفوح الحرمون..

الجبل شيخ لبسه الوقار والسّريّة تعبر الطريق الترابيّ أسفل الجبل.. قذيفة اخترقت دبابة قائد السّريّة، اشتعلت فيها نيران الحقد، احترق من بداخلها عدا الملازم جوزيف استطاع أن يخرج من حجرة القيادة، وهو يحاول إنقاذ طاقم الدبابة وجدهم جمراً يحترق، كطير مذبوح أخذ

يدور حول الدبابة والدموع تغرق عينيه.. دخل حجرة القيادة وأطبق الفوهة ولم يخرج إلا رماداً..

نفدت الذخيرة وانقطع الإرسال مع قائد الكتيبة والنهار ليل من غبار ودخان فيه البرق ويزمجر الرعد...

من الدشمة القريبة إلينا ، خرج الأعداء يتراكضون

المسدس لم يبق فيه سوى ثلاث طلقات استقرت في صدور الأعداء.. أحاطوا بنا وفوهات البنادق موجهة إلى الصدور.. لو أنهم قتلوني، لو أنّهم أفرغوا مخازن بنادقهم في صدري.. لكنهم عصبوا عيني بعصابة سوداء واقتادوني.

أربع سنوات وذلك الوجه يفترسني وينفث نيرانه على جسدي.. أعرفه أعرفه تماماً وأعرف نجمة داوود على زنده الأيمن وفوقها الشمعدان.. وصوته يؤجج ذاكرتي:

ـ ما اسمك ؟

ـ ما رتبتك ؟

ـ ما رقمك العسكري ؟

ـ أين تتمركز وحدتك ؟

ـ ماذا تحتوي تلك الغرفة على كتف الجبل ؟

ـ ما اسم قائدكَ ؟

الجروح تنقش ذاكرتها على جسدي، رغم ذلك، لا أدري من أين جاءتني تلك القوة وجعلني شامخاً كالطود، والقلب يحتضن الوطن...

يصرخ: ـ تكّلم.. تكّلم أّيها الـ...

ـ لا أعرف.

السوط حفر أخاديد الزمن على ظهري، وغياب الوعي أراحني.

كيف لي أن أنسى ذلك الوجه ؟

الرقيب عزرا.

والزنزانة المنفردة وهو يرمي إلـيّ قطعة صغيرة من الجبن تلفها طبقة سميكة من الملح والماء ممنوع..

هو هو الرقيب عزرا بذلك الوجه وذلك الجسد الحقير..

هل سيعرفني ؟ هل سيغدر بي ؟

الشمس كتلة من لهب، والهواء يثير غبار الحزن الخوذة قطعة من حريق والجسد يرشح عرقاً والسؤال:

ـ أين سيذهب ذلك الخبير ؟

عائد من الرّمس

شعاع من فرح يغمر قلبي سرعان ما يتلاشى كموجة أخذها الجزر، هل لأنني لم أعتد ولادة الحلم أم أنّ الطريق إلى الحلم أجمل من الوصول إليه ؟ هل عليّ أن أسعى إلى حلم بعيد بعيد جداً وأمضي إليه حتى النفس الأخير ؟

طرقات عنيفة تدق باب الليل، والخوف يتطاول ظلّه

رجلُ كالخيال، خريف يقف بالباب والسلام يتعثر بين شفتيه.

ـ لحظة، سأنادي أمي.

ـ مَنْ ؟

ـ رجل غريب، لم أره من قبل.

تتقدم إليه، فتتشابك العيون في عناق أبدي، عناق الأرض العطشى والمطر الغزير يروي أيام الجفاف

ـ سوسن.

ـ صابر.

تاهت الكلمات ووحدها أشواق السنين التقت.

ـ أبي !!

والتقينا الابن شبه اليتيم، والأب الغريب العائد من قبره، يحتضنني.. أشم خريف العمر الآتي من مقابر الظلام، يحمل العذاب المورق في موسم الضياع.. أين هذا الصدر من عُمْرِ ؟ هل سيعيد إليّ موسم الأبوة المفتقد طويلاً ؟ متأخراً جاء، والقلب تاه بين ضفتين من حزن وفرح...

بارداً يتغلغل صوته في حنايا الروح.. يرتجف متسلقاً عرائش القلب..

ـ كلّ شيء تغير.

ــ لقد ولدت من جديد، خرجت من قبرك، لم أكن أصدق أنك ستعود يوماً. لم أصدق أنني سأرى أبي

قلبُ الأمّ تنفس وارتدى غلالة الحلم الوردية، قنديل أشعلت اللهفة فتيلته، يضيء حكاية الليالي الحزينة:

ــ كان يعبر بوابة عامه الثالث، أطفأ شمعتين، ولم يشعل الثالثة.. الشتاء جَمّد الليالي، حين طوّقوا البيت

واقتادوك بلباس النوم، عصبوا عينيك وضعوك في سيارة (جيب)، وأوصونا بعدم السؤال، ورحل الفرح..

ــ جدتي أصيبت بمرض السكّري، ولداها.. الأول هرب خارج البلاد، والآخر لا أحد يستطيع السؤال عنه.

كانت تجلس قرب شجرة التين العتيقة، تبكي وهي تغني أغنية طويلة، لم أكن أفهم معناها، لكنها كانت حزينة.

ــ قلبي بين راحتيه حمل الطفل والجدة، كان عليّ تأمين حقن الأنسولين، وإسعافها إلى المشفى كلما داهمتها حالة السّبات، الأيام ثقيلة تمضي، والطفل دخل المدرسة، دخلني الأمل، تعلقت بخيوطه والأعين تلاحقني، لستُ أرملة، ولستُ مطلقةً بقيت معلقة بحبال القدرِ الذي لا أدري مصيره ؟

و الألسنة تلوكني:

ـ يمكنك أن تحصلي على الطلاق.

ـ ما زلتِ شابةً، سيذوب ربيعكِ.

ـ إن لجسدك عليك حقاً.

السنين قطار يمضي، والسّكة طويلة الحزن.

حبات الخرز والخيوط والإبرة والقماش، أذابت عينيّ، كما أذابني ذلك التاجر وهو يستغل حاجتي.

ــ كبرتُ ولا أعرف سوى أمي وجدتي، أحسست بشيء ينقصني، وحين سألني الأستاذ:

ما عمل والدكَ ؟

أفاقتني الصدمة، قلت له: يعمل مدرساً خارج البلاد. والغيرة تأكلني بين زملائي، وهم يتحدثون عن آبائهم، كانت أمي تمنعني من اللعب خارج البيت، كنتُ أهرب إلى الشارع دون أن تعلم تعرفت إلى أطفال ينقبون في القمامة، وأطفال يمارسون عادات سيئة.. تمنيتُ أن تكونَ قريباً مني، تمنعني من مرافقتهم، تمنيتُ لو تلطم خدي، لو توبخني...

بدأ وعيي ينمو، كما بدأ خوف أمي يطول عُمْراً، جذبتني مكتبتك وأخذت ألتهم الكتب

ودواوين الشعر، تشدني تلك الكلمات التي كتبتها بقلم الرصاص، ولم يستطع تيار الزمن جرفها كلمات تسجيها أقواس كبيرة تفصل بينها أقواس صغيرة:

ـ الصدمة شرارة الوعي.

ـ الوعي يبدأ من الرفض.

ـ البرق يسبق الرعد.

ـ المستقبل أن تفهم الماضي.

أحسستُ كما لو أنّك كتبتها من أجلي، رغم أنّي لا أعرف شكلك، كنتُ أراك تقف أمامي، تشرح لي قصيدة (إرادة الحياة)، وخطك الرصاصي محفور تحت كلماتها...

ـ ماتت أُمّكَ، وبقي الشاب الوحيد كالعسل على شفاه أيامي، وقلبي محاصر بين درب من شقاء وعُمْرٍ من حنين، لفني الفرح وهو يدخل كلية الحقوق رغم أنه خالف رغبتي في أن يصبح طبيباً يوم تخرّج تمنيتُ أن تشهد ذلك اليوم، حين أخبرته بأمنيتي قال: والدي وأين والدي الآن ؟ هل هو حيّ

هل هو ميتٌ ؟ أم أنّه حيّ ميتٌ ؟

ـ كلّ مسابقة تقدمتُ إليها كان الرفض مصيري حتى موافقة الحصول على جواز السفر رُفِضَتْ ما ذنبي ؟ ما الجريمة التي اقترفتُها ؟

دخلت نقابة المحامين يشدني قوس العدالة كي أدافع عنكَ، ولا أعرف كيف عنك...

لمن أرفع القضية ؟ لمن أسدد سهام الاتهام ؟

وكيف سأحصل منك على توكيل قانوني، ولا أعلم مكانكَ، لا أعلم مصيرك ؟

كان الفجر يشقّ قشرة الليل، ودموع الغريب قطراتُ ضياءٍ ظلام القبر.

بائع الأحلام

المساء مظلة سوداء تطرزها نجوم من صقيع لامع تغطي عالماً، يدور على قرن وحيد مجدول من مال وقوة عيناه ترنوان إلى البلبل الوحيد داخل قفص الانتظار، يغني ذكريات نهار مسافر وحلماً يخاف أن يتبخر بين شروق وغروب... تلوذ بقلبه إبر البرد يقترب من المدفأة الكهربائية، يجدها كضوء شمعة يقاوم ريح الانطفاء، يحاول حمايته، يسوره بكفيه، ينحني فوقه....

ذئاب مسعورة ترتقي شاهقات الأسى، تعوي في دمه، تجتاحه وحشة المساء، وكلمات الحديث الأخير...

ـ ماذا حصل معك ؟

ـ لا أزال أبحث عن عمل، ماذا سأقول لهم إن سألوني: ماذا تعمل ؟

ـ أريد صورتي.

يـباس يفـترس لـسانه وقلـبه، سـؤال هـارب يخـترق طبقات الملح:

ـ لماذا ؟

ــ أثق بـك، لكـني أخاف أن تقع بيد أحد، لا ندري ماذا يخبئ لنا الزمن !.

أصابع الذكرى تقلب جمرات الأمس الجميل، تعزف لحن ذلك اليوم، تقوده بنصف ابتسامة ولهيب بلا ضفاف...

ـ هذه صورتي كي ترى شعري.

لحظـتها أمـسك صـورتها، وقلـبه يغـرد، أخـذها، احـتواها بإطـار مـن قلـبه، كانـت صـورتها تغـني تـرقص معـه... وكان يرشف النبيذ المعتق من شفتيها، يداعب ذلك الخـال المختفـي وراء غـيوم الخمـار علـى صـفحة المرمـر، يدغدغه القرط اللامع

أملاً....

تتركـه يترنـح نـشوة تحت رذاذها وشمسها، يزركشه قـوس قـزح، يـدور حـول نفسه فاتحـاً ذراعيه على إيقاع لم يعرف من قبل......

يترك ذاكرته، ويغادر أساه، يغلق الباب خلفه، يسير في شـوارع الغـبش، محـاولاً اجتـناب وحـول الخيـبة، ومـيض بعيد يلمع أمام عينيه هامساً:

ـ ستجف الوحول يوماً.

كانت المدافع تبشر بعيد جديد، وأصوات تكبيرات المآذن فراشات تحلق مع براعم الياسمين وقد خرجت تبتاع ثياب العيد رغم البرد والوحول....

روائح الحلوى والبن المحروق تراقص الفرح وهي تنشر فتنتها حاول أن يسير معها، ابتعدت عنه، أدارت ظهرها، لدغته جملة هاربة من مكان بعيد قريب....

ـ ليلة العيد أجمل من العيد.

كانت وكان الحب والحلم ...

لا ليلة العيد ولا العيد أصبحا يعنيان له شيئاً، رحى موجعة تطحن أيامه، ودوائر أحلامه تذوب دائرة دائرة... وخزات باردة تحرق أطراف أنامله، يضع يديه في جيبي (بنطاله) تلامس أنامله نقود ورقية ملتفة في جيبه الأيمن... والدته تعرف أنه لم يسأل أحداً في حياته حتى هي نفسها، لكنها اعتادت أن تسكت ألسنة جيوبه.. رذاذ ناعم يعلو خدود الليل، أوتار ذابلة تهزها ريشة من بريق، قطرات شاحبة تحاول التسلل إلى دنيا أضيق من ثقب إبرة...

أمام باب صديقه فاضل زميل الدراسة يوقفه الدرب، بأصابع مرتجفة يضغط على زر الجرس فتنساب موسيقا

هادئة تبلل يباس روحه... يتسرب الدفء إليه ويد صديقه تصافح يده:

ـ يدك باردة.

ـ ليست أبرد من أيامنا...

ـ عندي ضيف سأعرفك إليه.

يلج معه غرفة الاستقبال غارقاً في بحر من الدفء والعطر والضياء يشعر بشيء ما يخنق في دمه....

ـ أعرفك: السيد منقذ.

ينظر إليه مشيراً برأسه مبتسماً، ليشير له برأسه مبتسماً مرحباً....

ـ أهلاً بك.

يبدو له السيد منقذ في العقد الخامس، ليلي الشعر ينسدل إلى الجهة اليسرى مغطياً جزءاً من جبهته، وجه حليق اللحية، متورد الوجنتين، يرتدي قميصاً بلون القمر، وربطة عنق من ورد أحمر وسترة أنيقة السواد، توحي له بجملة:

ـ سواد عن سواد يختلف.

لكن مظهره لا يوحي بعمره، يشعر وكأنه أصغر سناً منه....

يباغته سؤال السيد منقذ السؤال السهم الموجه إلى الجرح....

ـ ما عملك ؟

يرد عليه صديقه فاضل محاولاً إخراجه من شباك الإحراج:

ــ لقد تخرج في الجامعة، وتقدم إلى أكثر من مسابقة، لكن الحظ لم يحالفه بالنجاح، ولا يزال ينتظر مسابقة.....

يرد السيد منقذ:

ـ لا تقلق، هناك مسابقة جديدة ستعلن قريباً.

يرن الهاتف النقال الراقد أمام السيد منقذ على (الطاولة) يمد يده، يتناول الهاتف، يفتح غطاءه، ينظر إلى (شاشته):

ــ أهلاً اهلاً... هل باشرت عملها ؟...... سأوصي بها لا تقلق.... هذا واجبنا... خيراً..... مع السلامة.

يغلق هاتفه، ينظر إليه:

ـ هناك نوع من الناس لا ينكر المعروف، وهنالك من لا يقدم لك كلمة شكر، مع ذلك أحب خدمة الناس...

وأتمنى لو أن كل الناس مثلي. أسئلة بدأت تطن في رأسه، يختطفها رنين الهاتف النقال:

ـ أهلاً.... هل وصل إلى البيت ؟... عليه أن يسافر حال انتهاء إجازته.... لا تنس الـ.... أنت تعرف ضع في الفم تستح العين.... أهلاً.....

أسئلة تتكاثر تتزاحم، تبحث عن أجوبة، صداع خفيف يغزو رأسه يستأذن منهما يصافحهما، ويد السيد منقذ تشد على يده:

ـ أنا مستعد لأي خدمة.

يخرج وراءه صديقه فاضل مودعاً إياه، والهاتف النقال يواصل رنينه... يحاول أن يسأل:

ـ من هذا ؟ ؟ ؟

ـ إنه صديق، يعمل في العاصمة، ولا يأتي إلى المدينة إلا في المناسبات، أثق به، لا تسأل أكثر من ذلك، وتفاءل خيراً.

الأسئلة مطارق قوية تدق دربه، غيوم دكن تلون كرة من بلور شفيف... رغم ذلك غطاه فرح لذيذ وهو يطوي حلمه كفرح طفل يطوي ثياب العيد ويضعها تحت رأسه منتظراً الصباح.

رَمَاد

الآنَ وقد أصبحتِ بعيدةً، ما زالتِ شوكةً في القلب تخزني كلَّ ثانيةٍ.. لم تعودي تلك الدمعةَ، تغسلُ قلبي، وتوقظُ البريق.. أرتقي حافلة الأيامِ، ولا أكادُ أجد مكاناً لقدميّ، أو فسحةً لأنفي يلتقط أنفاسه جسد ثقيلٌ يدفعني إلى الأمام، وجسدٌ أثقلُ يدفعني إلى الخلف، وجسدي إسفنجةٌ تتقطر ألماً، تطيرُ منها فقاعاتُ الحزنِ، يدي تمسكُ مقبضَ الأملِ والأخرى تحضنُ دفاترَ البراعم.. صوت يصيحُ من بابِ الحافلةِ:

ـ ارجعوا إلى الوراء، الحافلةُ ما زالتْ فارغةً.

اعتدنا الرجوعَ إلى الوراء، لكنّ الحافلة لم تكنْ فارغةً يوماً، ما زلنا نتشبثُ بها ونبحثُ عن مكان.. بصماتُ الأحذية غيّرتْ لون حذائي، ويدٌ طائشةٌ مزّقتْ شيئاً من جنبي الأيسر، وعادتْ خائبةً والحافلة تتهادى

ذاتَ اليمين وذات الشمالِ، والذكرى ملعقةٌ من عسلٍ على شفاهِ أيامي..

كنْتِ، حينَ أعبرُ شارعَ حبّي بينَ سورِ الحديقة والبيوتِ العاليةِ، تشرقينَ من الشارع اليساري يحيطُ بكِ قوسٌ من ضياءٍ، فيلتفتُ القلبُ إليكِ تتعانقُ العيونُ تتوجدُ البسمةُ على دربِ الأماني أنتظرُ مرورَكِ، فيغدو الطريقُ بساطاً من الاخضرار، أسيرُ وراءكِ، ألملمُ أوراق الفل المتطايرةَ خلفكِ، تغمرُني مزنةُ عطرٍ ممزوجةٌ باللهفةِ والشوقِ، وقلبُكِ يلتفتُ إليَّ ويبتسمُ، فتزهرُ روحي.. نلتقي على سُلمِ الحبِّ عصفورين يزقزقان على غصن الُحلْمِ، يُطيِّرانِ فراشاتِ اللقاءِ ويزرعان ورودَ القصائدِ..

- لم أشربْ قهوةَ الصباحِ.

- تفضلي.

ترشفينَ قهوتي، وأرشفُ صوتكِ، أرشفُ ضحكة الطفلة تخربشُ على دفترِ أيامي تبعثر أشيائي تقطفُ ياسمينَ أوراقي..

يوقظُني تدافعُ راكبي الحافلةِ، أتذكرُ نزولي على الموقفِ، والطريُق إلى البيتِ غبارٌ تركهُ الصيفُ ينتظرُ مرورَ الشتاءِ.. مازالتْ غرفتي تعبقُ برائحةِ الفلِّ، والأغنيةُ ريحٌ تفتّقُ نوافذَ القلبِ، فيغرقُ المكانُ بالحنين، تذبلُ أغصانُ الروحِ، وتورقُ في القلب ألفُ غصّةٍ

كنتُ أعودُ إلى صومعتي، تسبقُني ورودكِ، يسبقُني صوتكِ، يشعلُ المدفأةَ، يضعُ عليها (ركوة) القهوةِ، يبدأُ شريطَ الأغنياتِ... بيديهِ يطعمُني التفاحَ والبرتقالَ والحلوى، يشعلُ سيجارتي يراقصُني، يثملني برائحةِ الحبِّ المقدّسِ.. منتشياً أستعيدُ صوراً فرحةً ليومٍ مضى..

الآنَ أستعيدُ حزنَ يومي وصوتُ مدير المدرسةِ يلفحُني:

ـ اكتب أسئلةَ الامتحانِ على السّبورةِ.

ـ لكنَّ الأسئلةَ يجبُ أن تكونَ مطبوعةً.

ـ الحاسوب يحتاجُ إلى حبرٍ وورقٍ، وليسَ لدينا ثمنُ الحبرِ والورقِ.

ـ لكنَّ الأسئلةَ طويلةٌ، لا يمكنُ كتابتُها على السّبوّرةِ.

ـ اختصرها.

ـ الأسئلةُ موزعةٌ على الدرجاتِ، وشاملةٌ للمنهاجِ، لا يمكُننا اختصارُها.

ـ اطبعها على نفقتِكَ.

وحدي والأيامُ وعرةٌ، تمتصُّ اخضراري، أهكذا يمضي العمرُ بينَ دفاترَ التحضيرِ وتصحيح الأوراقِ وصخبِ الطلابِ؟ السماءُ عاريةٌ والبردُ يخترقُ جدران

الصمتِ.. تأخّرَ المطرُ، والعمرُ محطةُ الانتظارِ.. سنةٌ على مسافةِ جرحٍ وأخرى تودّعُ الأحلامَ، تحزمُ الجراحَ، وبلا معطفٍ تعبرُ الدروبَ..

القلبُ أصفرُ القلبِ، يصلي صلاةَ الاستسقاءِ وشمعةُ الجرح الثلاثينَ بلهفةٍ ترتقي معراج الاشتعالِ..

ما عادتْ غيومُ الحبِّ تعبرُ قلبي، ما عادَ المطرُ ينقرُ بلّورَ نافذتي، ما عادتْ رقصة الرّيح تهزُّ روحي..

أَلأنَّ الأحلامَ تكسرَتْ ؟ ألأنها الصدمةُ صدمةُ الحلمِ؟ أمْ أنّها ضريبةُ الوعي ؟

كما علّمني قلبُكِ، أُضيفُ إلى فنجان العذابِ قطعةً أو قطعتين أو أكثرَ من الصّبرِ، لا شيءَ سوى الصّبر يجعلُني أرشفُ أيامي.. كأنَّكِ تسألين:

ـ ألمْ تعتدْ على ذلكَ ؟

ـ الاعتيادُ استسلامٌ، ولن أفعلَ شيئاً إنْ أصبحتُ كغيري.

ـ ضعْ رأسَكَ بينَ الرؤوسِ وامضِ.

لم أعتدْ أن أسمعَ هذا الكلامَ منكِ، متى تغيّرْتِ ؟

ولا أزالُ أعبرُ الجسرَ العتيقَ، والمساءُ طفلٌ يرتجفُ برداً وجوعاً، يرتجي معطفاً من حُبٍّ، أو ضّمةً من حنانٍ، أو قطعةً من عطفٍ وسُكّرٍ..

متشرداً داخلَ المدينةِ المدينة الغنّيةِ الفقيرةِ، الطفلةِ العجوزِ، النائمةِ بأوحالها وغبارها، لو أنّها تنزلُ إلى النهرِ، تغسلُ أوحالها، تزيلُ غبارَ عجاجها تتنشّفُ بالضوءِ، تسرِّحُ شعرَها، تتعطّرُ بعطرِ اللوز، أم أنَّ أبناءَها العاقينَ لم يتركوا لها وقتاً... أحسُّها أصبحتْ كأولئكَ الرجال الذين يسألونَ السؤال الأوّلَ وغالباً ما يكونُ الأخيرَ:

ـ كم راتُبكَ ؟

أو كالنساءِ اللّواتي يطلقْنَ الرأيَ الأوّلَ وقد يكونُ الأخيرَ:

ـ حلوٌ أو ليسَ حلواً.

لا شيءَ يثيرُ الروحَ، والليلُ وجهٌ واجمٌ، شفتانِ يا بستان تعشّشُ فيهما الحرقةُ، ويدان لوَّحَهُما أرقُ الانتظارِ..

هل كان حُبُّكِ زلّةَ قلبٍ أم خوفاً من هروبِ العمرِ؟

كانتْ أياماً جميلةً..

تغمرُنا أوراقُ الفلِّ، يعمدُنا المطرُ، يهدهُدنا ألقُ الحُبِّ الحالم بحكايةٍ طويلةِ الفرح.. الفرح الذي كان ظلُّهُ الخوفَ، الخوفَ من هروبِ اللحظاتِ السعيدةِ الخوفَ من عودةِ الشّراعِ إلى مرافِئ الحرمانِ..

لحظـةَ اكـتمالِ دورةِ العـشقِ، لحظـةَ الـسُكْرِ والنشوةِ العميقةِ، كنْتُ أبحثُ عن غرقٍ أجملَ، عن غرقٍ أعمقَ، وكُنْتِ تسألينَ:

ـ متى ستخطبُني ؟ لا أستطيعُ أ َنْ أبقى هكذا إمّا الزواجَ وإمّا....

أهكذا تعرفين الحُبَّ ؟ الحُبُّ ليسَ حصاراً في زاويةٍ صعبةٍ، الحبُّ أملٌ ينيرُ ظلامَ السنينِ..

أينَ سأذهبُ بالرسائلِ والقصائدِ والأغنياتِ ؟ ماذا سأفعلُ بالخواطرِ والذكرياتِ ؟ أينَ سأدفنُ المواعيدَ والمساءاتِ الجميلة، واللقاءاتِ على أبوابِ المدينةِ ؟ ماذا أقولُ: للنخلِ، للعصافيرِ، للفراتِ، إنْ سألُوني: ما أخبارُ الحبيبةِ ؟ إلى متى ستبقى روحي أسيرةَ ذكراكِ ؟ إلى متى سيبقى جرحُكِ في خاصرتي ينزفُ ألماً وحنيناً ؟

شعاعٌ من نجمةِ الفجرِ، يصيبُ روحي، يخرجُ كحوريةٍ على شاطِئ الصبحِ، تسّاقَطُ منها قطراتُ الضوءِ، تنفضُ رمادي، تسقي الأقحوانَ، تحلقُ لحيةَ الأمسِ، تعدُّ القهوةَ، تنتقي العطرَ واللّباسَ وتهمسُ:

ـ أسرعْ قبل أ َنْ تتأخرَ عن حافلةِ الأيامِ.

امتحان

سماوات وردية تعبرُ عيوناً حالمةً بأيّامٍ سعيدة، عيوناً عشقها الغبش والضباب لكنّ المطر لم يعرف طريقاً إليها...

على نار الحبّ والأمل تغلي زوجة أمين قهوة الصباح وهي تغنّي تلك الأغنية التي طالما عشقها وأحبّ سماعها منها منذ أن تفتّح الحبّ بين قلبيهما....

«شايف البحر شو كبير

قد البحر بحبك.....».

يرشف أمين القهوة، وهو يُعدّل ربطة عنقه، ويضعُ ذلك العطر الأنيق الهادئ هدوء البحر....

ـ البارحة شاهدني صاحب البيت، وطلب منّي ثمن فاتورة الكهرباء، أحرجني ونحن في الثلث الأخير من

الشهر، طلبت منه تأجيلها إلى أوّل الشهر، قَبِلَ على مضضٍ، وأطلق تنهيدة أحسست وكأنّه حرقني بنارها...

ـ ليس أمامنا سوى الصبر! عسى ننتهي من تشييد سقف ملحق البناء الذي اشتريناه، ونسكن فيه ولو على الحصير، وننتهي من هذا المؤجِّر... صحيحٌ ماذا حصل معك بشأن موضوع الاسمنت..

ــ اليوم دورنا في استلام الاسمنت من المؤسسة، ولكنّني لا أستطيع الذهاب فالأيامُ أيامُ امتحانات، ولا مجال للتغيّب عنها. والبنّاء ينتظر الاسمنت حتى ينتهي من سقف البيت.

ـ حسناً لا تهتم للأمر سأذهب أنا، أعطني رخصة البناء والأوراق وبطاقة الدور، وسأستلم الاسمنت وأوصله إلى الملحق.

يربط أمين خيوط حذائه، ويسأل زوجته وهو يهمُّ بالخروج: هل تريدين شيئاً؟

ـ لا أريد سوى أنْ تعود سالماً... انتبه إلى نفسك....

كم تمنّى أمين أن يكون له طفلٌ يودّعه عندما يخرج، ويعانقه عندما يعود، ويلعبُ معه، ويصطحبه معه في مشاويره... لكن عليه أن يؤجّل مسألة إنجاب الأطفال إلى وقت يصبحُ فيه صاحب بيت ، وينتهي من قضيّة الأجرة التي أصبحت علقة تتغذى من دمه وتعبه...

عـند بـاب مركـز الامـتحان علـى الـيمين والـشّمال اصـطفَّ أولـياءُ أمـور الطـلاب يـراقبون وصـول الأسـاتذة ، لعلَّهـم يتعـرّفون إلى أحدهـم ويوصـونه بالتساهل مع الطلاب وتقـديم العـون لهم... لـكن أمين يدخل مسرعاً من الباب ولا ينظـر إلا بخـطٍ مـستقيمٍ ، ولا يـرد علـى أيّ صـوت يـناديه تفادياً للإحراج...

يتسلّم أمـين أوراق الامـتحان ويذهـب إلى قاعته ورئيس المركز يلقي على أسماء المراقبين نصائحه:

هؤلاء أبناؤنا...

انتبهوا إليهم...

تعاملوا معهم بلين...

لا نريد أن نزعج أحداً...

يوزّع أمين أوراق الأسئلة على طلاّبه، وهم ينظرون إلى الأسـئلة وهـي ترفـرف بـين أيـديهم إلى أن تحـطّ أمـام أنظـارهم.. فـذلك يبتسم ويحمـدُ ربَّه ويبدأ بالإجابة... وآخر يعقد حاجبيه، ويصمت من دون أن ينبس بحرفٍ...

بطيـئاً يمـضي الـوقت وكـأنَّ عقـارب الـساعة سـلحفاة تـسيرُ فـوق دربٍ مـن الحجـارة، وعيـنا أمـين تـسيران بهـدوء تـراقبان الطـلاب، ذلـك يكـتب وذلـك يفكـر وذلـك ينتظر شيئاً ما...

انتصف الوقت...

وضعَ الطلاب أقلامهم على مقاعدهم وبدؤوا ينظرون إلى الأستاذ أمين علّه يفتح لهم مجالاً للنقل.

ـ لا أحدَ ينظرُ إليَّ، انظروا إلى أوراقكم، اقرؤوا الأسئلة جيّداً فكّروا ثم اكتبوا.

يركضُ الوقت أمام أعين الطلاب، بينما يسير ببطءٍ أمام عينيه، وستستلم زوجته الاسمنت، وغداً يصبُّ البنّاءُ السقف، وفي أوّل الشهر سوف يتسلم دوره في الجمعيّة ويبدأ بكساء الملحق بالصبر يهون كل شيء، ويلين حتى الحديد...

يمضي الوقت والطلاب ينظرون إلى بعضهم بعضاً، يحاول أحدهم أن يخرج من جيبه كتاباً صغيراً كي ينقل منه، يسرع إليه الأستاذ أمين يأخذه منه، ويحذّره، ويطلب منه ألا يعيدها مرّة أخرى...

يضيق الوقت أكثر أمام الطلاّب وهم ينظرون إلى الأستاذ أمين ثم يعودون إلى النظر إلى بعضهم بعضاً، وتضيق الدوائر رويداً رويداً.

ـــ أستاذ (اللّه يخلّيك) إن لم أنجح سوف يضيع مستقبلي هذه آخر فرصة أمامي...

ـ أنا لا أسمح بالغشّ ، ثم من يريد النجاح يعرف طريقهُ.

ـ الكلُّ يغشّ يا أستاذ، اسمع أصوات الطلاب في القاعات الأخرى، انظر أمَا ترى الطلاّب يفتحون الكتب أمامهم وينقلون الإجابات!!! لماذا أنت؟؟؟

ـ الغشّ حرام، ثم كيف يتساوى طالبٌ مجدٌ تعب طوال عمره أمام طالب كسول لا يعرف شيئاً...

ـ استرح يا أستاذ، أما تعبت من الوقوف.

ـ المنارات لا يتعبها الوقوف...

ـ الأستاذ (دقةٌ قديمةٌ) لا تحاولوا...

ينتهي الامتحان، ويتسلّم الأستاذ أمين أوراق الطلاب، ويخرج بها ليسلّمها إلى رئيس المركز... يخرج والعيون تلاحقه وتكاد تأكله بينما سمعه يتعثر بجمل يحسبها الآخرون تحرقه:

ـ شكراً لك يا أستاذ باسم وفّقك الله..

ـ دربُكَ أخضرُ أينما ذهبْتَ..

ـ ستصلُكَ إلى بيتك..، يسلم الأستاذ أمين الأوراق إلى رئيس المركز وعيون بعض الزملاء تبدي امتعاضها بشكل فاضح لكنّه لا يهتمّ فالمبدأ مبدأ...

يسرع في العودة إلى البيت، فالامتحان كان طويلاً ومتعباً...

فالآن زوجته قد استلمت الاسمنت، وعادت إلى البيت، وجهزت له الغداء ليستريح بعد هذا الوقوف الطويل...

قلبُهُ يسبقُ قدميه في الوصول إلى البيت، يقرعُ الجرس، ويدير مفتاح الباب، ويدلف مسرعاً إلى البيت، والفرحة تكاد تمنعه من الكلام...

لكنّ أسئلةً بدأت تتراقص أمام عينيه:

لماذا لم تستقبلني كعادتها؟

- لماذا لم تقف خلف الباب؟

وضع المفتاح في جيبه وتوجَّه إلى المطبخ، لكنّه لم يجدها، دخل غرفة النوم ليجدها جالسة فوق السرير تفكّر في أمر ما، سألها بعد أن ألقى التحية:

- ماذا بك؟

- لا شيء...

- هل استلمت الاسمنت؟

- لا لم أستلم الاسمنت...

- لماذا فاليوم دورنا في الاستلام؟؟

ـ مدير مؤسسة الاسمنت أجلَّ دورنا حتَّى إشعار آخر...

ـ لماذا؟

ـ قال لي: إنَّ دورنا النظامي ليس الآن، وهذا الدور غير نظامي حصل فيه خطأ، ولا يستطيع مخالفة القانون... مثلك تماماً كما طبقت القانون على ابنه في قاعة الامتحان، ولم تفسح له مجالاً للنقل... ثم قال لي: لماذا هذا الرأس اليابس لزوجك، لماذا لا يفيد ولا يستفيد؟

حتى الدروس الخصوصيّة لا يقبل بها، وغيره امتلك الأبنية والسيارات، دعيه يبقى هكذا....

لم أعد أدري ما أقوله له!!!

ـ لماذا لم تقولي له إنَّ دورنا نظامي، وليس مخالف للقانون، ثمّ إنَّ الذين سجَّلوا بعدنا استلموا قبلنا، كيف حدث ذلك؟؟؟

حسناً سأتدبَّر الأمر..

ماذا طبخت للغداء؟

ـ لم أطبخ شيئاً!!

ـ لماذا؟

ـ جاء شرطي إلى البيت، وأبلغني بوجوب أخذك إلى المخفر؟

ـ لماذا؟

ـ مسجِّل عدّاد الكهرباء، اتّهمك بسرقة الكهرباء من العمود بشكل مخالف للقانون، وكتب بك ضبطاً عند الشرطة وعليك أن تلحق نفسك.

ـلكنَّ كهرباء البيت نظاميّةٌ، وليس من عادتي أنْ أسرق الكهرباء ثم لست أنا من يسرق الكهرباء...

ـ ما الذي بينك وبينه؟

ـ آه مسجّل عدّاد الكهرباء، ذلك الذي يتلاعب بالعدّادات كيفما يشاء ويزوّر ويقبض يتهمني لأنني لم أسمح لابنه بالنقل في الامتحان...

انتهى الامتحان ليبدأ امتحانٌ جديد.. امتحانٌ من نوعٍ آخر ليس فيه أسئلةٌ أو أوراق...

حكاية صيف

شـيءٌ ما يؤرقُني، يُلِحُّ عليَّ، يُعنكبُ فكري وأيامي، يلعـقُ فرحـي، ويلقـي بـه علـى شـاطئ الـسّأمِ.. لكـن لمـاذا المكابـرة؟ لمـاذا الـتجاهل؟ أهـو العجـز أم أنـه الانـتظار دون فائدةٍ؟

أظافـر الخيـبة شـرسـةٌ، وجلـدي ينـزفُ قلقـاً، المـروحة مـروحة طائـرة مجنونة السرعة، تهـذي وهـي تُشرِّحُ الهواء، ترسله سـاخناً يلفح مهجتي... النوم حلمٌ بعيد، ومتعة القراءة ملحٌ يذوب مـع عـرق الظهيرة، المـاء البـارد يُطفئُ الحرائق، يُبلسم الجـروح، أفـتح صُـنبور الحلـم، وأخلـع ثـياب الأيـام الخفيفة، يلوذ بي عطر الصابون، وخوف من اللسعة الأولى للمـاء البارد يسيطر عليّ، يدي تغتال خوفي، وتسـكب الماء الـبارد، تـرتجف أطـرافي، ويخـرج صـدري شـهقة عمـيقة، يتلاشـى معهـا الخـوف، ويـصبح المـاء الـبارد لذيـذاً... هـي الخطـوة الأولى فقـط، ويهـرب الخـوف، يـتحول إلى مـتعة

ونـشوة انتـصار... لمـاذا نـولد ويـولد الخـوف؟ يـزحف معـنـا ويمـشي معـنا، ويدخل المدرسـة معـنا، يحمـل عـصا المعلم، ويحفـظ تحذيرات الأهل، يحمل السوط حين تجلد فكرنا وأحلامـنا ألـسنة الـناس، يفـتح أبوابـنا وقلوبـنا عندما تطرق قـبل أن نفـتحها، يـرد على هواتفـنا، ويقـرأ رسـائلنا، يُشاهدُ التلفاز معـنا، ويستمعُ إلى أغانيـنا، يقرأ كتبنا وصحفـنا، ويشرب القهوة معنا، يشاركنا في علبة تبغنا، ويسبقنا إلى غـرفة نومـنا... لمـاذا نـولد والقمـاط يلـف أطـرافنا؟ نعـيش والقيود تثقل كاهل أحلامنا؟ نموت والأكفان تقيد أيدينا وأرجلنا؟

الـوقت قـاربُ نجـاةٍ ينتـشلني مـن مـتعة المـاء الـبارد المسبوقة بالخـوف الجـبان، زوارقـي قطـرات تـرفع رايـات بيضاء، تساقط من جسدي..

شـجرة الفـل تنتظـر مـوعدي، تـرمُقُ سـاعتها، تتأفّفُ، تنفض يـديها، تلـتفت يمـيناً وشمالاً، تُقطّب جبينها، تعاتب قلـبي وهـو يحمـل مـرشَّ الفـرح، تبـتـسم ورودهـا، والفـرح يسـري داخـل أوراقهـا، بيدٍ من زئبق تضرب كتفي، فيرش قلبي الماء على وجهها، تدير رأسها، تمنع الماء من عينيها، تجمـع قطـرات الفـرح، ترشـق وجهـي، تـرفع يـديها، تحاول الـتقاط مـرشِّ الفـرح، تـضحك ورائحـة الفـرح عـصافير

تزقـزق، ترفـرف بعـبيرها، تحلّـق فـوقها، تـبدو كامـرأة خارجـة مـن نهـر الألـق، وثـوبها الأخـضر، المرصـع بالفتـنة، المبـتل بالألـق يلتـصق بجـسدها، وهـي تحمـل جـرة الفـرح، تبـتعد، تـسير بقدمـيها الحافيـتين علـى شـاطئ مـن مـسك ممزوج بالنبيذ...

قلبي طاقـة ورود حمـراء علـى كؤوس خـضراء أشعلها الـشوق تحتـضنها سـلة منـسوجة مـن قـصب وحـنين، معلقـة علـى جـدار الأمـس... أصنـع إبـريق الـشاي علـى نـار حنيني، وكما قلت لي ذات فرح:

ـ انتظـر المـاء حتـى يغلـي، أطفـئ الموقـد، ثم ضع أوراق الشاي وأنتظر وما زلت أنتظر..

عبـثاً يحـاول قلـبي محـوك مـن قلـبي وذاكـرتي، يحـاول اجتـثاث جـذورك الـضاربة في أعـماق أعـماقي، يحـاول إغـلاق نوافذ الحنين، فتبرزين كنقطة ضوء وسط لوحة ليل...

تفـوح رائحـة الـشاي المعطـر بالحبِّ، تشاركني حنيني وضـياعي بـين يـأسٍ وأملٍ.. علـى صـحن الـذكرياتِ يـستريحُ قدحٌ صغيرٌ بعمر حُبِّي، قدحٌ عريضٌ من الأسفل والأعلى ذو خصر لخصر راقصةٍ يُسوِّده خطان رفيعان من ذهب، وبلا سُكّرٍ أسكبُ الشاي من دون سُكّرٍ!

ـ كيف تشرب الشاي من دون سكّرٍ؟!

لا طعم للحياة من دون مرارة...

رنين جرس الهاتف يسلب شرودي الجميل، فأتركه دون جواب...

عندما كان جرس الهاتف يرنُّ، كنت أركض كمن أصابه مسٌّ كي أمسك صوتك بفرح طفل يُمسك لعبتهُ الأولى، يخافُ أن تضيعَ منه، يخاف أن تُسرق منه... وصوتُكِ صوتُ طفلةٍ فاجأتها براعمُ الحبِّ، تغافلني، تمشي على رؤوس الفيروز، تقف خلفي، تضعُ يديها على عيني، أستسلم، ويداي تمسكان يدي العاج، أقف فتعانق يدها اليسرى يدي اليمنى، ترفعها إلى أعلى، تدور حول نفسها، فيدور قلبي معها، ويحتضنها لتهرب منه، وتدور من جديد، وغُرةُ ليلها المشرق على جبين الصباح تدور معها، تطير، تغني أغنية حبٍّ هاربٍ من أعرافِ القبيلة:

«أنا يا طير ضيعني نصيبي

وحرت لاني لهلي ولاني لحبيبي

حرت ما بين أنسى وبين ألاقيك

أحن مرّه لهلي ومرّات أحن ليك

وأطير ويّا الهوى لو يمر طاريك...»

مع رشفات الشاي المرِّ وكلمات تلك الأغنيةِ الأغنيةِ الجرح، تنخرُ عمري، تحجز الشمس الحارقة تذكرة

سفرها وقد أصبحت امرأة حنونة يلفها ذلك الحزن، الحزن الذي يسبقُ لحظات الوداع، تلقي شالها الأرجوانيّ على المدينة، وتستلقي على أوّل مقعد داخل حافلةِ الغياب.. ترخي جفنين من بنفسج، تطوي ورقة نهارٍ ضاع بين بؤس الوقوف أمام نوافذ الخبز، والتسوق من نساءٍ ريفيات يفترسن الدروب يعرضن لبنهنَّ وخضارهُنَّ وشقاءهُنَّ، وصرخات أطفالٍ يدفعون عربات الجوع، وقراءة أخبار تحمل صور الدماء... تنام وهي تحلم بصباح جديد صباحٍ لا يعرفُ الغبار، لا يعرف الجوع، لا يعرف الدماء...

الليل يمد أشرعة الظلام، والقلب يطوي أشرعة الأيام الممزقة، والورق أذنٌ تحفظ عذابي.. من دونك لا لون للسماء، لا طعم للغيوم، لا عبير للورد، لا نور للقمر...

تُطلّين من ليل الهجر قصيدةً على صحيفة المساء قصيدةً ترتدي ثوباً أبيض عاريَ الكتفين، ويُبرِزُ صدرك المتطلّع إلى أفقٍ بعيد، ينصتُ إلى نجمة الليل تقرأ فنجانك، تخبرك عن طبقٍ من فرحٍ، عن أبواب مفتوحة، عن درب أخضر...

وتسألين:

ـ ماذا تكتب؟

وحدها حكاياتي تدفع الموت عنّي كما شهرزاد...

- هل أعجبتك قصيدتي؟

قصيدتك آلةُ زمنٍ تعيدني إلى ذلك الزمن الجميل، يحتوينا ذلك الشارع المسوّر بضفتين من أشجار الزنزلخت وعرائش الياسمين وتلك الرائحة تفوح من المطاعم الراقدة على ضفة الفرات اليمنى، رائحة دخانِ الشواء والعَرَقِ ممزوجة برطوبةِ النّهر وعِطر الغرب وصوتِ أمِّ كلثومٍ يغازل العشّاق والسكارى... يشمخُ الجسرُ المُعلَّق أمامنا شموخ نخلة أتعبت الدهر ولم تتعب. أعمدةٌ من نور، تربطها حبالٌ من فضة على درب من أمل، يعكس النهر على خده صورتنا فنبدو كجسرين عاشقين تتشابك أصابع يديهما في عناق حميم.. تنتهي قصيدتك، تغيبُ آلة الزمن الجميل، وتتركني على ضفة الزمن الجديد، تلبسني عباءة الأسئلة، أصافح أبا حنينٍ:

- لِمَ لَمْ تُنْشَرْ مقالتي!

- مقالتك تنتقدُ النشاط الثقافي و....

ـ نعم مهرجان المرأة الأدبيّ توقف... والمسرحُ منذ سنواتٍ يغطُّ في سباتٍ عميق، والمواهب الشابةُ حرمَت من المنبر....

- لقد احتفظ بها المحرِّر.

- لماذا؟

ـ مدير الثقافة سيحرمُهُ من المشاركة بأيّ نشاط إن نـشَرَ المقالـة. الليـلُ سـجينٌ يقـتلع أشـواك القهـر، يهـزُّ القضبان، يضربُ الجدران، يصرخ كبحر هائج، يود لو أن المدينة تسمعه، يودُّ لو أن المدينة تقف معه، تدافع عنه، تطلق سراحه..

يهمس صوتك:

ـ إلى متى ستبقى هكذا!

لماذا تصرين على معاملتي كما تعاملين باقي السِّرب؟

ـ انتبه لحياتك وتصرّفْ.

سأتصرّفُ كما أريدُ، ونحنُ من نصنع الحياة.

قلبي قمرٌ ينثر ظلال اللجين على المدينة فتبدو المدينة كشيخٍ مُتْعَبٍ مُستسلم لقدره، يجلس في آخر مقاهي العُمْـر... يعبرُ القمـرُ شـوارعَ المدينـةِ، ينظـرُ إلى النـاس، يهربون من بيوت القيظ، يرشون الماء على أرصفة الشقاء، وشوارع الليل المكوية بشمس الاحتراق، فتبدو الشوارع كشوارع الشتاء تفوح منها رائحة البخار، يغمرهُ الخجلُ والعيون ترصدُ خطواته... عينا أبي صابر تتأملان النُّسوة، تلعنان زوجهُ، تكادان تأكلان كلَّ امرأةٍ تعبرُ دربَهُ، تردّدان نشيدَ بطولاته الجنسيّة، الأبديّة: لو أنَّها ترتدي كهذه أو كهذه أو تضع عطراً كتلك... الزمن غير زماننا.

شفتا أبي العبد راوٍ يسردُ قصة غداء اليوم، كيف اشترى اللحم بعظمه، كيف انتقى قرون (البامياء)، ثم يمسحُ بطنَهُ بيدهِ واصفاً متعة شرب اللبن بعد أكل الثريد...

بصبر صيّاد مزّقتْ شبكتي أعشابُ الخيبة، وقلبُهُ صائمٌ يشمّ ولا يذوق، يعيدُ نسج شباكي، يغمض قلبي أذنيه، وعيناه ديمتان تحجّر فيهما المطر، تشعلان فتيلة الأحلام...

كأن عطرك يلثم جرحي فتغار الجروح، تتوصل بلسمك، تتشبث بثوبه، تبكي كورود تنادي فراشة الأحلام أغراها اللهب، ترفضُ:

ـ لن أعود إلى الحكاية نفسها، الفراشات حولك كثيراتٌ.

عابراتٌ يعبرن قلبي، يحملن عدساتٍ لاصقة، ورموشاً مستعارة، وشفاها مزوّرة، وقلوباً كاذبةً، وأحاديث مجمدة، وضحكات مُعلبة.. يعرضن أزياءَهُنَّ، يبحثن عن جيوب ممتلئة، عن عباءات يتلفعن بها... تبتعد وعيناها تنظران إلى أعلى وقلبها يلتفت إليَّ يرنو إلى قلبي خلف قضبان الهجر، والأيّام سهام تنطلق من جعبة الأسى، تخترق التيار، وزادها حب وصرة أحلام وأمل بنجمةٍ تعلن اقتراب الفجر، وترفض أن تكون وليمة لطيور اليأس.

الذئب

نــارٌ ذات ألــسنةٍ تحــيط بــالأمِّ، وهــي تـضرب كـفــاً بكفٍّ، لم تعد تدري ماذا تفعل؟

إن سكتت تحترق، وإن تكلمت انفضح سرها...

حملـت همـومها ودقـت بـاب أخـيها، وهـي تقـود ابـنها معها...

أمام أخيها جلسا، وانفجرت دموعها..

الحقني يـا أخـي، ابـني المتـزوج صاحب العائلة عاشق، ويريد الزواج من معلمة متعاقدة معه، يوصلها إلى مدرستها بالسيارة، بنات الزمن يسلبن العقول... وابني عاد مراهقاً يريد أن يخرب بيته بيده...

ينظـر الخـال إلى ابـن أخته نظرة استصغار من الأسفل إلى الأعلى، وبكل هدوءٍ يطلق نصيحته:

غشيمٌ يا أختي.

«وَلَك» كُنْ مثل خالِك: اضرب واهرب.

صور ملوّنة

لم تبق منارة تهتدي إليها سفني..

لم يبق ضوء ينير دروبي...

والأحلام لم تعد تعرفني...

والسعادة أقرأ عنها ولا أراها...

وحدها بقيت مخلصة

جروحي.

تركتُ عينيّ تجولان في مكتبتي، فتعثرت بصورٍ مرميّة، كنتُ أحسبها كأيّ صور، لكن قلبي قرع أجراساً جعلته يتأهب في غبطة خجولة، أشعلت شمعتي وأمسكتُ بالصور أقلبها، راحت عيناي تغوصان....

الصورة الأولى:

استيقظ التاريخ على صوت غنائي وفتح دفتره ليخطَّ أول صفحة في حياتي، كان الصيف يستعد للرحيل حين أشعلت أول شمعة في قلبي، شمعة بعمر الورد يشملني عطرها، أحميها من الريح، أخاف أن تنطفئ، كان لها أجمل ثغر في هذا الكون، كان لها أجمل واحتين، وكان أجمل ليلة في عمري، والشمعة تذوب رويداً رويداً..

الصورة الثانية:

يهرول الخريف مقطّباً حاجبيه ليسرق من الأشجار لباسها، لقد أصبحت عارية سوى من بعض الأوراق تسترها عورتها، وينساب الفرات كعقد يطوّق جيد المدينة، ريحٌ قويةٌ لا يقف في وجهها شيء، لكنّ شمعتي صامدة متوقّدة تبعث الدفء في أوصال الذكريات.

عقد من اللؤلؤ يطوق جيدها، حلقاته كالنجوم، أغار منه أغار من هذه النجوم المتلألئة على البلور الشفيف.

كان أكثر جرأة مني...

ثغرها قافية ترسل أعذب الألحان، والكون ضحكة أحلى من أنغام الطيور، حتى الطيور تغار من ثغرها...

الصورة الثالثة:

ذراعها تتأبط ذراعي باحثة عن الدفء

وفي ليالي الشتاء يفرد الدفء جناحيه في حنايا العناق، ينساب صوت فيروز (يا ناطرين التلج) فتتصاعد رائحة القهوة لتعانق كلماتنا..

غزال يهرول فوق ثلوج الذاكرة، يقف تحت شجرة سرو كبيرة، ينظر إليَّ بعينين شاردتين فأرى فيهما عالماً مترامي الأطراف.

يذوب الثلج ويرحل والشمعة تذوب ببطء...

الصورة الرابعة:

حبّنا أصبح شاباً...

في روضة غناء كنّا جالسين، والورود تنظر إلى شمعتي بحسدٍ، رأسها على كتفي، أصابع يدي اليسرى تداعب أناملها، وعيناي مبحرتان، ويدي اليمنى تمسح شعرها الأشقر المجنون لترفعه من فوق خدّها وتضعه خلف أذنها، همست شفتاها في أذني اسمعني:

عيناك بحر أخضر

عيناي قارب صغير

الميناء بعيد جداً

ما أعذب الغرق...

الصورة الأخيرة:

أيلـول يلفحـنا بتقلـباته، تتـساقط دمـوعك لحظـة وداعنا، وأمسح دمعك الأسود، فيرسم على كفي صورة قلبينا الذبيحين...

والـشمعة تكـاد تنطفـئ، لم أكـن أحـس بالـنهاية، كنت أظنها تدوم أكثر...

فجأة...

يغيب عن عيني نورها، أحسست بالشلل يطوقني... آه

ذابت شمعتي، لكنّ رمادها باقٍ لم يرحل.

يطلّ أيلول من بعيد ألمحه يشير إليَّ براحتيه، ترى ماذا يريد؟؟؟

هل يحملُ في طياته شمعةً أخرى؟؟؟

في ذاكرتي تعيش كلمات أغانيك، وألحانك تدغدغ وجداني، رقصات شفاهك وهي تغني مرسومة في عيوني.

كـان الـوفاء دمـك الـذي يغـذي قلـبك ويجـري في شرايينك كنت أدرك أن كل الشموع مثلك ولكن...

الخروج إلى المقبرة

ـ 1 ـ

من قرون أجول في حنايا الموت، أمتشق الألم، يدفعني المرض إلى المرض، تلسعني الهموم بسمومها، فتجري في عروقي وتتغذى من دماي، ينسج الصمت شباكه في كل ناحية من جسدي يلفني بها، أغصان الحزن بدأت تتفرع من جذوره المغروسة في جسدي، والغربة تنقش أبجديتها على جبهتي...

جلس القدر أمامي ينظر إليَّ بعينين مليئتين بالمآسي، وقد اتسعت حدقتاهما، كأنّه يطلب دمي، وأخذ يلفُّ يديه الحبلى بالجراح حول عنقي، يضيق نفسي رويداً رويداً...

أموت بين يدي القدر، تأملّ عينيّ تنظران إلى السماء، ثم أطبق جفوني، وراح يجهز مراسم الجنازة...

- 2 -

غسّلني كان الوحيد الذي رأى أماكن لسع الهموم، وشباك الصمت المنسوجة على جسدي، ورأى أغصان الحزن تتقرح من جسدي، ولغة الغربة منقوشة على جبهتي، ثم همَّ بالكفن يلفني به وقد أحكم شدّي كي لا أهرب منه...

وضعني في نعش لا أعرف من أي شيء صنع، لكنّني شعرت بالرياح تدخل من كل جانب وقد أحدثت صفيراً صامتاً...

لا بدّ أنها تبكي... ثم مشى بي نحو المقبرة...

يشيعني القدر... يقتلني ويمشي في جنازتي، ويضعني في القبر، ويرمي عليّ التراب...

لم يمش في جنازتي أحدٌ، ولكن عقارب الهموم، وعناكب الصمت وأغصان الحزن ونقوش الغربة كانت وفيّة لم تتركني... بل سارت معي، ومشت في جنازتي...

أمضيت ليلة قاسية وباردة وطويلة.. الليل يطول أكثر، والشمس سحبت خيوطها الذهبية منذ زمن طويل... تجمّدت أوصالي من صقيع انتظار الشمس... ولكن يبدو أنها لن تأتي...

قـرّرت الـتجوّل في المقـبرة، جـوع عمـيق يـسيطر علـيّ لاستكشافها مشيت قليلاً. وأقل منظر رأيته وجذبني وأثار الحيرة في نفسي أرغفة الخبـز الـتي تتراكض في الـدروب وتتطايـر في الهـواء... تـضرب الـرؤوس وتحلّـق في الفـضاء، وقـد لحق النـاس بهـا يركـضون خلفهـا... يريدون الحصول عليها، لكنها تهرب مسرعة، تسافر نحو الغرب...

كـان منظـراً... ذكرنـي بالابتـسامة الـتي لم أعـرفها مـنذ قـرون ، لكـنَّ الـسؤال الـذي حيرنـي: هـل علـيَّ أن أركض مثلهم؟..

تابعت السير والحيرة تطاردني في كل مكان..

وصلت إلى لوحة كتب عليها شارع الثقافة، أعجبني جداً هـذا العنوان، أسـرعت في الدخـول إلى هـذا الـشارع، لكـن الـصدمة كانـت أكـبر مـن إعجابـي بالعـنوان، الكتب تصعد إلى الفضاء... تسافر بين النجوم، قلّة من النـاس كانـت تنظـر إليها باسـتغراب، والـكثير مـنهم لم يكن مهتماً بالأمر كأنه لا يعنيه...

- 3 -

عقارب الهموم تبحث عن أماكن جديدة في جسدي وتسير مبتهجة... وعناكب الصمت تضحك وتنسج شباكها وأغصان الحزن تكبر أكثر... والغربة تتابع نقش أبجديتها بقوة أكبر...

من شدّة الصدمات لم أعد أعرف طريق العودة إلى القبر، كانت الشوارع تتسع وتضيق، وتبدو نظيفة ووسخة...

تابعت طريقي، كان هناك رجلٌ يسير ويحدّث نفسه... بدت عليه علامات التعاسة والذبول.. يحمل بيده اليسرى كتاباً وقد حضنته جريدة وبيده اليمنى لفافة تبغ سحب منها نفساً عميقاً وأخذ يرسم من دخانها حلمه المتبدّد.. ثم راح يلعن أبا الجوع وأبا الزمان وأبا الـ.... ويسير في خطوات مسرعةٍ... يبدو أنَّ ذاكرتي قد قرّرت الهروب أو أنَّ الجنون بدأ يصنع سلالمه للصعود إليَّ...

- 4 -

أراح التعب نفسه على جسدي، لكنّني ما زلت أقوى على المسير، قذفت بي الدروب الصغيرة إلى شارع كبير وأنيق، له أرصفة عريضة قُيِّدت بسلاسل من حديد، حتى الأرصفة مقيّدة هنا... لكنَّ الازدحام جعلني متوتراً، لهاث السيارات وهي تصعّد الغيوم السوداء، وعويل أبواقها، وصراخ أنفاسها المارة... بدأ التوتر يتلاشى قليلاً، إذ لوحات الإعلانات التجارية براقة تتراقص فيها الأنوار، وإعلانات اللحم الصارخ.. تجعل النفس تنسى الازدحام والتوتر والصراخ...

لكن الناس يسيرون إلى الخلف... والسيارات تمشي إلى الوراء... وإشارات المرور تتضاحك فيها الأنوار وهي تشير بيدها إلى السيارات وتصرخ بهم من هنا... مسحتُ عينيّ ونظرت بهدوء... أنا متأكدٌ مما أرى... أوقفت أحد المارّة، فسألته: لماذا تسيرون إلى الخلف؟... فضحك ضحك وتابع طريقه إلى الوراء... في نهاية الشارع وقف عمود حجري قديم يروي قصص التاريخ، وفي قمّته ساعة تقرأ الأمجاد..

يشمخ فوقها سيف كسر لكنّه متآكل الحواف...

عقارب الساعة كانت تتراجع إلى الوراء... والسيف محطم متآكل... لماذا هكذا؟

أوقفت رجلاً سألتُه: لماذا؟

ضحك وتابع طريقه إلى الوراء.

لماذا يضحكون من السؤال؟؟

ترى أهو الواقع أم أنني أرى الأشياء مقلوبة؟؟

يبدو أنّ الجنون بدأ يصعد سلالمه أو وصل منتصف الطريق إليّ.

- 5 -

لقد ملتني عقارب الهموم، فلم يعد هناك متّسع في جسدي، لكنها وفية لم تتركني، وعناكب الصمت تفتش من جديد عن زاوية لها وكلها أملٌ، أغصان الحزن أصبحت أشجاراً باسقةً، والغربة تعيد نقش لغتها بعنفوان كبير...

الليل ما زال يرفض أن يسافر... وخيوط الشمس لا تريد المجيء، كنت أتمزّق على دروب المقبرة... حتى أوصلتني الدروب إلى قبري..

رحت أحدث نفسي:

متى ينتهي الليل الطويل القارس.. ونشرب قهوة الصباح؟... متى ننهض من قبورنا؟... ونجتث جذور الحزن من الأعماق؟... ونمزق شباك الصمت ونقتل العنكبوت؟

متى نمحو آثار الغربة عن جباهنا ونعيدُ صقل سيوفنا؟؟

هل ننهض من قبورنا... أم ننتظر من يضعُ أكاليل الورود عليها؟؟...

على حافة السرير

ـ 1 ـ

انتصف الليل..

وكيس «السيروم» ينزف دمه قطرة قطرة...

يدي تمسك يد الجدّة خشية أن تحركها، فتخرج الإبرة المغروسة في عرق ذراعها...

الطبيب المناوب يمر على المرضى قبل أن يذهب إلى غرفته..

لقد أخبرني أنه وضع حقنة مهدئة مع «السيروم»، لذلك فإنها ستنام بعد قليل.

عيناها المتعبتان..

بدأتا تبحران باتجاه ضفة النوم بخطاً بطيئةٍ..

عينان تراقبانهما حتى وصلتا إلى ضفة النوم بسلام..

منذ عشرة أيام وأنا على هذه الحالة...

الليل سميري اليتيم... أحياناً أهرب منه حين أسمع أنين المرضى... وأخرى يهرب مني لأنه يخاف من القطة التي تتجول في بهو الجناح، عندما تتشاجر مع قطة أخرى تقاسمها طعام العشاء...

لكنه لا يلبث أن يعود بعد أن تنتهي المشاجرة...

من نافذة الغرفة...

تدخل رائحة النهر العاشقة للياسمين والغَرَبِ...

فتلوّنها رائحة عفونة المشفى.. لتحاصرني عربات الملل والكآبة... فيصبح الذهاب والإياب بين السريرين وسيلتي الوحيدة للمقاومة...

ـ 2 ـ

في الغرفة المقابلة...

خيالٌ لشخص يجلس على السرير... ثابت لا يتحرك.. وجهه مرفوع إلى أعلى، ساقاه واقفتان، يداه تحيطان بهما، جامد كجبل...

هالني الأمر، وعلقت عيناي بهذا الخيال...

الخوف يحاصرني وأنا أنظر إليه... هل يكون قد مات؟

يبدو أنه وحيدٌ، لا أحد معه في الغرفة؟

كم هو صعب أن تموت، وليس بقربك أحدٌ...

اقتربت من الباب

صوتٌ لأنفاس حارة تتزاحم بسرعة...

ما زال على قيد الحياة...

عندما عدتُ إلى الغرفة، عادت الحياة إلى الخيال الميّت...

قام عن السرير، أخذ يتجوّل في الغرفة...

فرَّ الخوف من صدري...

رجعتُ إلى «السيروم» أنظر إيه وهو يتابع سفره قطرةً قطرةً...

ـ 3 ـ

أحسست بالخيال يقترب مني.. خيال طويل كشبح تراءى في الظلام، التفتُ إليه، وقعت عيناي في عينيه...

يا الله....

إنها امرأة طويلة....

ـ مساء الخير....

لم أعـرف كـيف أردُّ علـى تحيـتها.. انعقـد لـساني، وانشلت أطرافي، وغادرني صوتي...

لا أعلم سواءٌ ردَدْتُ عليها أم لم أرُدّ..

- مَن تكون مريضتُكَ؟

بـدأت عقـدة لـساني بـالانحلال... ومـضى شـلل أطـرافي وعاد إليَّ صوتي...

- إنها جدتي...

- أتمنى لها العافية...

- شكراً لكِ.

يخــرج صــوتها بهــدوء عجــيب، مــصحوباً بزفــراتٍ حارقة، لهجتها غريبة نوعاً ما....

- لقد منعني الطبيب من التدخين، وصادر علبة تبغي، هل معك تبغ؟

- نعم... ولكن سيؤثر على صحتك؟

- لا تخف، لقد تحسنت كثيراً...

- سيراك الطبيب...

- لا، إنَّه الآن ينام في غرفته...

- لا أدري؟

ـ قلتُ لك: لا تخف، تعال نجلس في غرفتي...

مشيتُ خلفها، يرافقني قلقي، وتتسابق معي أنفاسي، وتسير أمامي حيرتي...

جلستُ على حافة السرير، وجلستُ على الحافة المقابلة من السرير نفسه...

وضعت علبة التبغ أمامها، فمدت يدها، وبأصابع نحيلة، طويلة، سمراء سحبتْ سيجارة، أشعلتها، وأخذت تدخن بشراهة غريبة...

قلقي يزداد عمراً، وحيرتي تتطاول ألسنة اللهب فيها...

أيُّ جذوة تحرقك أيتها المرأة؟! أم أيُّ سر يلف يديه على حنايا روحك...

رفعت غطاء رأسها الأسود عن رقبتها الطويلة، وألقته على كتفها...

تتصرف ببرود قاتل، وأنا أتكسّر شوقاً لسماعها اعتقيني وتكلمي.. تكلمي....

- 4 -

تـشعل الـسيجارة الثانـية... وينفـرط «سـيروم» لـسانها كلمةً كلمةً...

ـ لابدّ أنـك عـرفت أنـني غـريبة، لـستُ من هذه المدينة الغافـية علـى ضـفة الـشقاء... صـدري ملـبدٌ بعواصـف مـن غبار...

لم أجـد مَـن أتحـدث إلـيه، أرجـوك لا تغـضب مـن عواصفي...

ـ لا لن أغضب، فالعواصف مزمنة في قلبي..

يتجمد قلقي، تتلاشى حيرتي، ينزاح ظلام ليلي...

وعفـونة الـرائحة، وثلـج الـوحدة، مـع طـيورها العابـرة فوق سحبي...

ـ في مـدارس الفرنـسيين بالجزائـر أمـضيتُ طفـولتي، ودرسْـتُ حتـى المـرحلة الـثانوية... ثـم أرسـلت إلى بـاريس... هـناك تابعـت الدراسـة الجامعية رغـم أناقـة الحـياة المـزيفة فيها... لم أستسغ العيش هناك، قلبي يعيش في الجزائر...

كـنت أزورهـا في عطلـة الـصيف، أقـضي أيـام عمـري الرائعة فيها... عندما أعود إلى باريس...

أتشرد فيها، حديث السهر والليل والخمر وكل شيء مباح...

أمقتُ هذه الأشياء... وأمقت فرنسا كلها...

دائماً أشعر بغربتي عنها، إنها ليست بلدي....

في السنة الأخيرة...

أجروا لنا مسابقة، نلتُ المرتبة الأولى، حصلت على جوائز مالية كثيرة...

لكنني لم أكن على إيمان بأي شيء مما تعلمته... عدتُ إلى الجزائر لأمضي إجازتي فيها... الصيف أجمل ما يكون في الجزائر...

في الأمسيات..

كنا مجموعة من الأصدقاء... كما الورود تجتمع في باقة...

يلفنا الشعر والموسيقا والبحر بشرائط من حرير... من خلالهم تعرفت إلى عماد - الشاب السوري - حيث يعمل في الجزائر، شاعر مرهف... صديق صادق... قلب أفكاري رأساً على عقب...

أنصت إلى كلامه الذي يذوب نبيذاً على شفتي اليابستين. فيفيض قلبي بالإيمان... وتتبجس ينابيع باردة من

بين صخوري... شعرت بأشياء تشدني إليه..

كطيور تسبح في سمائه.. أخذت فراشات روحي تحلق حول نوره...

ـ 5 ـ

قلبي الأجوف...

بدأت تتقطر فيه مياه الإيمان.. فتشق جذورها في قاع القلب.. وإلى الأعلى تمتد جذوعها..

أصبح نوري البهيج.. طريقي الواضح الصريح، الذي لا انحراف فيه.. انتشلني من تخبطي في ظلمات التيه... ذات لقاء...

رسم في داخلي جملة ستبقى راسخة في أعماقي:

«ما يدخل القلب من غير يقينٍ... يختفي مع أول بصيص من النور...».

بدأنا نغرق في بحر من الحب.. لا مجال للنجاة منه... خلال هذه الفترة، تخلصت من أدران فرنسا النتنة.. قطّعت كل جذوري بها... وبنيت سداً عالياً بيننا...

عندما لم نجد قاعاً، أثناء غرقنا في بحر الحب، تزوجنا...

بعد زواجنا بشهور... أخذت الأحوال تسوء في الجزائر، وعمله صار على شفا حفرة من الموت...

قرر السفر إلى بيروت حيث العمل كثيرٌ.. ثمَّ... سافر إلى بيروت العروس الرقيقة الملوّثة بدماء الحرب الأهلية.. سافر وحده، رفض أن يأخذني معه، لكنه وعدني بالسفر إليه بعد أن تستقر أموره... جسر من الرسائل يربط بيننا، رسائل مفعمة باشتعالات الأشواق.. وأعاصير البعد والفراق...

الرسالة الأخيرة..

أماتتني حرقة.. لم أفهم منها شيئاً، غامضة، غريبة، شعرت بشيء غريب يحدث معه... ثم تهدم جسر الرسائل، فصاحبني الشك.. صرت أشعر ببرودة الشتاء، وبرودة السرير... أتفحص كتبه وأوراقه، أنظف طاولته، أعانق صورة الحبيبة...

ـ 6 ـ

عن طريق المصادفة...

عثرت على أحد أصدقائه الذي رفض أن يخبرني بالحقيقة.. بعد أن أقسمتُ عليه.. أخبرني بأن عماد قد انفجر فيه لغم في بيروت. وبُترت ساقه... فبقي في المشفى حتى تحسنت صحته، ثم عاد إلى أهله في سورية...

كالمجنونة...

تتلقفها الأزقة، ويسير خلفها الأطفال، يجرها شارع ويقذفها آخر... وقع عليّ الخبر.. أصبحت امرأة تعيش في مرحلة من اللاوعي..

لا أدري كيف وصلت سورية.. جئت إلى هنا... ذهبت إلى أهله، طردوني.. لم أكن أعلم أنه على خلاف مع أهله بسبب زواجي منه.. وأنه يعيش وحيداً.. استدللت على بيته وذهبت إليه.. عندما شاهدته يسير على عكازين، تبخر البصر في عينيّ، أحاطني سواد رهيب، وقعت على صدره...

صحوت على نفسي، وأنا على هذا السرير... من عينيها انزلقت دموع ساخنة تسقي جفاف خديها السمراوين...

تركتها ترتاح قليلاً، وذهبت لأرى كيس «السيروم» وهو على وشك الوصول إلى محطته الأخيرة... أمسكت يد جدتي وأنا أراقب قطرات «السيروم»...

على صوت أشعة الشمس الدافئة تفتحت عيناي.. فخرجت أبحث عنها في الغرفة المقابلة...

فلم أجد سوى بقايا ذكريات على حافة السرير....

المحتوى

الإهداء 5
قطرة أمل.. 7
من دفاتر الربيع (مساء الحُبّ) 12
الليلة الثالثة بعد الألف 17
الصوت العميق.. 21
شهيدٌ واحدٌ لا يكفي.. 25
اسطوانة الأوكسجين 29
المدينة الجديدة.. 33
المؤقتون... 38
وشمٌ في الذاكرة... 44
عائد من الرمس... 49
بائع الأحلام... 54
رَمَاد... 60
امتحان 66
حكاية صيف... 74
الذئب.. 82
صور ملوّنة... 83
الخروج إلى المقبرة... 87
على حافة السرير.. 94

السيرة الذاتية

الاسم : عزام مطيع الأحمد

- مواليد دير الزور 1974
- إجازة في اللغة العربية وآدابها ـ جامعة حلب.
- دبلوم تأهيل تربوي ـ الجامعة الافتراضية السورية.
- يعمل مدرساً لمادة اللغة العربية في ثانويات دير الزور.
- كتب القصة القصيرة والخاطرة.
- نشر قصصه وخواطره في الصحف السورية: البعث، تشرين، ملحق الثورة الثقافي، جريدة الفرات، مجلة منارة الفرات وغيرها.
- شارك في العديد من الأمسيات والمهرجانات الأدبية.
- نال الجوائز التالية:

1 ـ جائزة فرع اتّحاد الكتاب العرب بدير الزور عام 2000 و 2010.

2 ـ جائزة الأديب سعد صائب بدير الزور عام 2003.

3 ـ جائزة ملتقى الشباب الفلسطيني بدمشق، المركز الثالث على مستوى القطر عام 2003.

4 ـ جائزة مجلة منارة الفرات عام 2007.